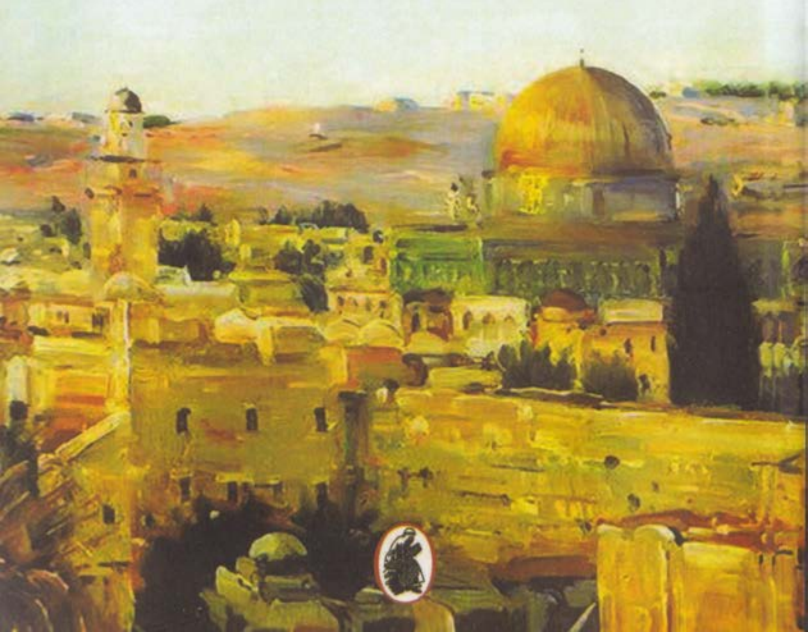
NARDEEN ABUNABAA

رواية
NOVEL

نردين أبو نبعة

باب العمود



باب العمود / رواية عربيّة
نردين أبو نبعة / مؤلّفة من الأردن
الطبعة الأولى، 2017



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ :
المصيطبة، شارع ميشال ابي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU ، بناية النجوم، مقابل ابراج بيروت
ص. ب 5460-11 ، الرمز البريديّ 2190-1107 ، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
info@airpbooks.com
التوزيع في الأردنّ :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157 ، عمّان 11191 الاردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 4631229 6 962+
موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ :
محمد سيّد ® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
خطوط الغلاف : زهير أبو شايب / الاردنّ
الصفّ الضوئيّ : المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : المطبعة الوطنية - عمان

ISBN 978-614-419-834-6



▼

نردين أبو نبعة

باب العمود

▲



الإهداء

إلى ورد الزنازين . .

وقد راهن منجل العدو على اقتلاعه فأينع وأزهرا

إلى . .

من ينعمون بالحرية أكثر من الطلقاء ، لإنهم يملكون القرارا

إلى . .

من اختبروا الدفء رغم قسوة القضبان!

إلى . .

الكف التي تخيط ثوب العودة غرزة . . غرزة

إلى . . الأسرى

فالفجر لكم

والأرض لكم

والشمس تقف مزهوة فوق أكتافكم

العرس
القدس ٢٠٢٥

بهيةٌ عروس القدس اليوم . . كيف لا وقد تضلّعت بحبها وحبِّ عاشقها ؛ فارتوت يقينًا وسكينة! كانت ترى ذلك اليوم كفلق الصُّبح! ترى عرسها الثّاني الذي وعدها به ماهر بعد خروجه من الأسر!! كان يوقظها صوته . . لدرجة أنها تلتفت إليه . . تسمعه يعزف أجمل معزوفة . . يقول لها :

- سأعوضك عن كل تلك السّنين . . سنقيم عرسًا جديدًا تحكي عنه كلّ القدس . .

تسمع الزغّاريد . . تشعر بدفء أنفاسه وسكينة روحه وارتعاش يديه . . تحلق معه (صوب القدس) .

كانت ترى القطوف دانية والحب يفيض على الوسائد . . ما شكت ولا لاَنت!!

في كل ليلة كانت تنسلُّ إلى أوراقها وأقلامها . . فتشعر بقربه . . يحميها ويؤويها . .

كان كلُّ شيء ينطق باستحالة خروجه من الأسر . . تستعيد لحظات النطق بالحكم (٢٠٠ مؤبد) تزداد تشبُّثًا بحلمها المكسور . . ترمِّمه . . تعيد إليه بهاءه . . لا ترى الأغلال ولا

القضبان . . لا تجرح فجرها القادم بعتمة الظّن . .

كانت تحيط قلبها الغريق بألف حبل للنجاة! تمدُّ له في كل شهر حبلاً (رسالة) مطرَّزة بالأشواق والدَّعوات . .

في الثّامنة مساء دخلا قاعة الأفراح ، يتقدّمهما عبادة ومريم . . يحملون الشُّموع والورود . . الكل في القاعة يزغرد ويهاهي . . ينظر مندهشًا . .عروسان للمرة الثانية وبصحبة أولادهما!!

توسطا القاعة . . وبلهفة دامعة . . قدمّت بهية لماهر (رواية باب العمود) كهديةٍ لخروجه من الأسر . .

رواية باب العمود هي مجموعة الرَّسائل التي كتبتها بهية ، وكانت تبعث بها لماهر في سجنه ، وبعض الرسائل القليلة التي كانت تصلها من ماهر . كانت بهية تكتب رسائلها على الورق حيناً وخلف كل صورة لها أو للأولاد حيناً آخر! هذه الرسائل قلبت حياة ماهر . . جعلته أكثر احتمالاً . . احتشدت الحروف فمنحته شموعًا أضاءت ليل السجن . . أحالت الجحيم إلى نعيم مرسوم بدقة . . يسمع نبضه حينًا وحين!!

هذه الرسائل قلبت حياتها أيضًا . .!!

في لحظات الهزيمة كانت الكتابة هي الملاذ!! في لحظات الكتابة يتهلل القلب ويتسع لعبور أعتى الأمواج . . مع كل حرف كانت ترتشف من الوصل ما يعينها على المسير!! مع كل انحناءة قلم يشتعل العمر ويتورد من جديد . . كل كلمة تكتبها لماهر

تعدل لقاءً . . كل كلمة تلوّن بها العمر الباقي بالجمال والبهاء . . وتطفىء لهيب الشوق . . كل كلمة تحملها خارج حدود المكان لتصنع لها مواسم الفرح والنور . . في لحظات التهشم والإحباط كان الدمع يجري على الورق فيزهر سلامًا ويقينًا بالفرج . .!!

لم تكن بهية تتخيل أن تتحول هذه الرسائل إلى رواية!!

إن رواية (باب العمود) هي روايتها الأولى وربما ستكون الأخيرة . . فليست لديها النية أن تصبح كاتبة أصلاً! لقد كانت تكتب هذه الرسائل لماهر حتى تعطيه مفاتيح الثبات . . حتى يستمر النبض رغم كل الجفاف!

هل كانت الكتابة احتيالاً على العاصفة؟ أم كانت دواءً لنحيب الروح وبرود الأهل والأصحاب . . وخواء الزمان!

ولم تكن تتخيل أبدًا أن تتحول هذه الرسائل بعد تجميعها إلى أروع هدية . . تهديها إلى ماهر في عرسهما الثاني . .

كثيرًا ما كانت بهية تضع القلم . . لا تعرف ماذا تكتب . . كانت تقول لنفسها :

لا لن تستطيعي! توقفي! هذا أمر لم تعتادي عليه من قبل . . لكن ما جعلها تستمر هو صوت ماهر بعد المكالمة الهاتفية في ٢٠١٢/٥/١٢ وهو يرجوها أن لا تقطعه من الرسائل . ولن تنسى قفزة الفرح في عينيه عندما كانا يلتقيان في الزيارات المتباعدة عندما أخبرها بأن رسائلها هي التي يداوي بها نوبات الحزن التي تداهمه أحيانًا . .

كانت ترتعب من فكرة الكتابة . . لكنها كانت ترتعب أكثر عندما تفكر بعدم الكتابة . .!! كانت تشعر حينها بأنها تتخلى عن ماهر . فكيف سيتحمل ماهر كل هذا الخواء؟!

كانت بهية تحكي كل ما حدث ويحدث معها . أحيانًا كثيرة تعيد الحكايا التي حصلت معهما قديمًا لترى الفرح في عيون ماهر .

لقد عرفت فيما بعد أنه لولا تلك الرسائل لاشتعل العطش في روحه ولجفّت الروّح . . عرفت أن تلك الرّسائل هي زمزم التي فارت وفاءً وحبًا بعد سعيها بين رسالة وأخرى!

كانت العتمة تفوح يومًا بعد يوم ، والقلوب بدأت تنوح وتتيبسّ ، حتى إذا خطت رسائل النور أزهرت الأمنيات وارتوت القلوب .

تهبُّ تلك الرسائل فتُلقح الحب وتطفئ الشّوق وتسدُّ مسامات القهر والوحدة والعزلة . . فلا يأتي الفجر إلا وقد بزغ معه فجر الرّوح .

تبعث بهية بصورة لها أو للأولاد كلّ شهر . . تكتب خلف الصورة بخط صغير جدًا وقد تنقطع الصور والرسائل كعقوبة من السجان فيكف ماهر عن الرغبة في الحياة ويصاب بشيخوخة القلب ، فجأة وقبل أن يتماهى معها ويستسلم تأتي رسالة بهية فتخضر الروح وتَعْشَوْشِبْ .

كل رسالة كانت بمثابة ولادة وحياة جديدة لكلٍ منهما ،

فبعض الكلمات ولادات! ومن رسالة إلى أخرى كانا يورقان من جديد ، لكنها في أحيان كثيرة كانت تُصاب بالهزيمة فتقرر حينها أن تكتب وتحتفظ بتلك الهزيمة على الورق ولا ترسلها له . . لقد كانت تردد دومًا ما قاله ماهر :

«النصر والهزيمة يجريان من ابن آدم مجرى الدم ، وأنت من يقرر إلى أيهما تنحازا»

***

اندهش ماهر عندما ناولته بهية رواية (باب العمود) قبَّل جبينها ، ثم ضمَّ الرّواية إلى صدره بقوّة وبكى كما لم يبك من قبل!!

فتح ماهر الرّواية وسط ذهول المدعوين . . تأمّل الصّفحة الأولى . . تحسّس الكلمات ليصل إلى الصّفحة الأخيرة .

وتشتعل السّنين مرة أخرى . أحيانًا يشعر ماهر بأنه لم يمض في السجن إلا يومًا أو بعض يوم ، وأحيانًا يشعر بعكس ذلك . لكن الشيء الذي كان على يقين منه . . أن تلك الرسائل اختصرت الزمن كقطعة ثلج وضعها على الكدمات والأحزان فأصبحت بردًا وسلامًا .

دخل ماهر السجن منذ وقت بعيد . . لكن هذا الزمن اختُصر في رسائل عدة .

ينظر إلى الجموع التي تتابعهم . . تلتقي عيناه بعيون الناس في القاعة . .

الناس الذين تقاسموا المقاومة والثورة والانتفاضة والفرح والحزن لم يتغيروا . . الأرض لم تتغير . . مازالت تقف على الشبآك تنتظر العائدين!!

الأطفال وطوال هذه السنوات مازالوا يتدربون على أبجديات العودة واللقاء الأول . ها هي الذاكرة ولأول مرة تمشي للأمام!!

تستند هذه الرواية إلى أحداث حقيقية في المجمل . .

مجموعة الرسائل

الفصل الأول

حانية ورود الدار
عندما تُغرم بالغُيّاب

ماهر!

ياناي الفرح الذي بددّ العتمات!

عندما دخلت كان لخطواتك عبق نبي . .

وعندما حكيت . . حتى حيطان البيت حنّت ولانت . .

فصوتك يشبه تراتيل مآذن القدس!

وعندما تنَهدت قائلاً «أسير سابق في سجون الاحتلال»

أمطرتني بعطر كفك الذي أراد أن يستريح استراحة المحارب!

كنتُ أتخيل بأن حياتي كلها بهجة . . حياة حافلة بالإنجازات والتكريمات والجوائز . . فقد كنتُ الأولى على دفعتي في الجامعة . . أُلقي الأشعار وأحيانًا كثيرة أنظمها . . أُقدم الاحتفالات على مدرجات الكلية فأنا أملك صوتًا عذبًا وقويًا . . أسمع التصّفيق وكلمات الإطراء وأرى نظرات الإعجاب تحوطني من كل جانب!

لكن يحدث أحيانًا أن يأتي من يقلب حياتك رأسًا على عقب . . يجعلك تغير زاوية نظرك . . يأسرك ويجعلك تعيد طرح الأسئلة على نفسك . . وهكذا كنت يا ماهر!

ماذا فعل بي هذا القادم ، والذي أخبروه قبل أن يأتي بأنني قد لا أوافق ؛ فأنا متفوقة وجميلة ولا أريد الارتباط إلا بعد الانتهاء من دراستي .

لكنها الكلمات!!

كلماتك يا ماهر عكست شيئًا ما داخل نفسي . . حركت شيئًا مخفيًا راكدًا في روحي لم أكن أعرف ماهيته ولا كنهه . . لقد ملأ فراغًا لم أكن أراه أو أشعر به أو لربما كنتُ أتحاشاه!

فبالرغم مما حققته من نجاحات فإن هذا القادم رمى وردة في بركتي التي تعج بشتى أنواع الألوان والأصوات . . وردة جعلتني ألاحق عبيرها وأنتبه لها بكل حواسي . هذا العريس القادم جاء لينبش أعماقي ولأعرف من خلاله عشقًا من نوع مختلف ؛ عشق أحمله ولم أختبره من قبل!

اهتزت روحي لهذا القادم . . ولم أكن أدرك أي تغيير سيحدث لحياتي وأي ثمن باهظ سأدفعه لاحقًا! ولم أعرف أن النهايات ترتسم بحروف البدايات!

لقد رتبتُ حياتي كأبدع ما يكون . . كان لي رؤيتي الواضحة للسعادة والحياة والعطاء والإبداع . . كنت أسير منطلقة نحو مخطّطاتي بعنفوان خيل لا يهدأ . . لكنه جاء ليقلب كل شيء ، وليلقي بكل رؤاي وأحلامي جانبًا . . جعلني أرى شيئًا لم أره قبل ذلك . .

قلتَ لي :

- لا تصطفي من الرجال إلا من كانت فلسطين معشوقته الأولى!

أدهشتني الجملة! وكان لفلسطين لحن على فمك كأنني أسمعه لأول مرة . يا ترى ما الذي فعلته بي يا ماهر؟!

في هذه اللحظة تصارع داخل رأسي صوتان . صوت يأخذني إلى عالم الخضرة والانبساط والانطلاق بلا قيود من الوطن الكسير الذي يحتاج لألف جبيرة!

وصوت يأخذني إلى عالم المجهول والنتائج غير المعروفة . .

واعترفتُ في هذه اللحظة بأن الثمن قد يكون الوحدة والألم . . لكن ذلك لن يثني صقرًا يحمل روحًا وثّابة عن التحليق عاليًا ليصنع حريته . . حتى لو كان الثمن هو نتف الريش!

تبعثرت مشاعري التي كانت ساكنة مطمئنة هادئة . . هاجت وماجت كبحر داهمته الريح فجأة . . وقتها لم أفهم طبيعة هذا الشعور الذي أعاينه لأول مرة . . لكنني حدست بأنه شيء جميل كغيمة تنثر ماء ورد في جنبات روحي .

لاحقًا قلتَ لي بكلمات غير ناطقة :

عندما نظرتُ إلى وجهك المصقول كمرآة ، وهربتِ بعينيك بعيدًا عني . . ذكرتني نظرتك بعيون طفلة وجسارة أم فلسطينية . . في عينيها تجذر الزيتون وخضرته وفي يدها خنجرا بدا وجهك هادئًا ناعمًا ، لكنه يخفي وراءه القوة والجدارة يتحمل الوجع!

ذات يوم وقبل عرسنا بأيام قلتَ لي :

ولولا تلك الصورة ، في تلك الجريدة ، في ذلك الصباح الماطر ، في مدرسة طبربور الإعدادية في عمان ، لم أكن بجانبك الآن!

وقتها لم أدرك وقع تلك الصورة عليك إلا بعد سنوات!!

ولم أكن أعرف أن تلك الكلمات ترسم ملامح قدري القادم!

***

بلهفة أتابع كلماتك وهي تشتعل على طرف شفتيك :

في ذلك اليوم صفعني المشهد . . وجدتُ جريدة ملقاة على باب مدرستي لأناس كثر . . سُجَّد ركَّع . . يشبهونني . . لون دمائهم كلون دمي . . يسبحون في دمائهم . . كان ذلك في ٢٥/شباط/٩٤ ، الآن تتدفق المشاهد إلى ذاكرتي بسرعة . . مشاهد خُيِّل إليّ أنني ركنتها في ركن قصي جدًا من الذاكرة . . صورة أمي الواقفة على المجلى وقد وضعت مريولاً أخضر على خصرها . . وعندما رأتني أحمل الصورة التي قصصتها من الجريدة أخذت تبكي وتشهق وتدعو على اليهود «الله لا يجبرهم» أخبرتني يومها أنها مجزرة حدثت في الحرم الإبراهيمي ، بلعتُ ريقي بصعوبة . . أحسست أني أختنق به ، وبدأت من يومها أتابع الأخبار لحظة بلحظة . . أقرأ الصحف حرفًا حرفًا . . الغضب والحزن طائر يئن في روحي . لا أعتمد على الجريدة التي يشتريها أبي يوميًا . . بل كنت أحرص على

شراء الجريدة من مصروفي الشخصي . أدخل إلى غرفتي ، أقص المشاهد والأخبار التي تتعلق بفلسطين ، أُلصقها على الجدار أمامي ، حتى صارت الغرفة من أعلاها لأسفلها تمتلئ بالصّور وامتدّ الأمر إلى الخزانة من الداخل والخارج حتى ضجّت أمّي .

في كل يوم كنتُ أمعن في صورة منفذ العملية الوحشية «باروخ غولدشتاين» الذي استطاع وفي خلال أقل من عشر دقائق أن يصوب زخّات من الرّصاص على رؤوس المصلين ورقابهم وظهورهم ليصيب أكثر من ثلاثمئة وخمسين بين شهيد وجريح . . كان عمري في ذلك الوقت لا يتجاوز الثانية عشرة!

مسحتُ عيني بسرعة وغمغتُ بصوت غير مسموع :

لم أشعر بوهج فلسطين في قلبي إلا في تلك اللحظة التي تحدثت فيها يا ماهر عن المجزرة . . وتساءلت :

هل نألف حتى نتحجر؟!

هذه المشاهد أذكرها جيدًا! لماذا أغلقت عيني عنها؟ كيف عشت كل تلك السنوات في هذه الأرض التي تغلي وأنا منحنية ألتقط ما ليس له قيمة؟ لماذا لم أجرب أن أرفع رأسي لأرى قامة الوطن؟

عاودتني الدهشة وأنتَ تصف حالك مع العشق الجديد :

– وقفتُ بجانب أمي وهي تعد الطعام يومًا وقلتُ لها وأنا أتنفس بصوت مسموع كلّه غضب وقلت :

- لو كان لي الخيار لذهبت الآن إلى فلسطين ولكنتُ شخصًا آخر!

يومها شعرتُ بقلب أمّي يرتجف . . تعلقت نظراتها بي . . كانت تبحث في عيني عن ذلك الطفل . . لكنّها لم تجد سوى وهج جمر يشتعل ، وغضب مقيد في قلب طفل مقيد!

بدأت أمي تُبعد كل الصحف والمجلات من طريقي . تغلق التلفاز بسرعة إذا رأتني قادمًا . . عندما يشتري أبي الجريدة تُخبئها فأشتريها من مصروفي فتصيح معترضة :

_تبذير وإسراف!

أفهمها وأصمت!

أرى لآلئ تلتمع في عينيكَ . . أستمعُ لك بلهفة :

كثيرًا ما كانت تتجمد الدموع في عيني ، وعرفتُ حينها مرارة أني لا أجيد البكاء! بعدها بسنة تقريبًا مرضت جدتي في القدس ، وسافر إليها أبي ، وبقي هناك سنة كاملة ليمرضها ويداويها ويشرف على علاجها ومراعاة أمورها . . وعندما شعر بأنه يصعب عليه تركها طلب منا الحضور إلى القدس!

عندما قالت أمي وهي تنظر إلي بالذات . . إننا سننتقل إلى القدس . . بذلتُ جهدًا كبيرًا في كبح فرحتي ، وبقيتُ أشعر بنظرات أمي وهي تتابعني . . تريد أن تقيس ردة فعلي التي تخيفها!

شعرت بنفسي وكأنني كنت في شارع مظلم ، وعندما

ضاق وضاق ، وفي تلك اللحظة بالذات انفتح مسرب آخر لأكتشف أن البداية من هنا . . بداية الطريق!

وبدأ الطريق يا بهية . . القدس التي كنت أكتب فيها الأشعار

يا قدس
طويل ليل البعد!
وحانية ورود الدار
حينما تغرم بالغُيّاب!

القدس التي كانت في خيالي مجموعة صور . . ألملمها من الجرائد والتلفاز ، هاقد صارت حقيقة من روح ودم يا بهية!

القدس التي كانت حكايا بلا تفاصيل ، هاهي تطل بأوجاعها وارتعاشها . . بالحواجز العسكرية والرصاص . . باهتزاز بلاط الأقصى تحت قدمي وانقلاع الأشجار وميلانها حينًا بسبب الأنفاق التي يحفرونها تحت الأقصى! بالأعلام الإسرائيلية المعلقة على البيوت والتي كنت أظن في البداية أنها لمؤسسات حكومية (كتمتُ ضحكتي) .

وكم فزعت عندما عرفت بأنها بيوت عادية لمستوطنين يهود . . الأعلام تنتشر على أعالي المباني والشرفات والشبابيك . . أطفال المستوطنين يلعبون بحارات القدس وكم أرعبني أن أعدادهم كبيرة وكم حزنت عندما عرفت بأن أعلى معدل لإنجاب المرأة اليهودية سُجل في القدس! وأن المرأة

اليهودية والفلسطينية في القدس تساوت كلتاهما في عدد المواليد ؛ بسبب ارتفاع نسبة اليهود المتدينين في القدس! . . . تنزُّ العروق فجأة في رقبتي ويدي ووجهي وتتساقط الدماء داخل جسدي حارة وساخنة لتشعل المزيد من الحرائق . . فالنار عندما تشتعل لا تحتاج إلا لمزيد من الأعشاب الجافة!

ولأول مرة أرى الكرز الأخضر أخضر بهذه البهجة! عند باب العمود يا بهية . . الجنود يلاحقون بائعات الزعتر والميرمية واللوز الأخضر والكرز . . يطاردونهم في اللقمة . . بينما يتركون تجار المخدرات يعيشون في الطرقات . . أبوس الأرض تحت أقدام الأمهات ، وأتنفس هواءً عكَّره غبار القهر ورماد أوسلو . .

***

تحكي عن القدس يا ماهر وكأنني لا أعرفها! أستمع لك وكأنني أرى القدس لأول مرة . . إنني أراها بعينك وقلبك . . معك أنصت لصوت العاشق المفتون وهو يلقي قصيدته الأجمل عن القدس . .القدس أم العواصم . .القدس الكاشفة ؛ تكشف أهل الزيف وأهل الحق!

القدس البوصلة التي تجمعنا حين تتعدد الخرائط وتتمزق وتختلط معالم الطريق . .

أريد مترين قبر في القدس

ماهر!

يا صاحب الجبهة الأبهى

دخلنا المنزل الذي سيضمنا قريبًا تحت سقف واحد . . المنزل الذي صممتُ أن يكون داخل أسوار البلدة القديمة لأجل القدس عروس الذاكرة وياسمينة الروح ولأجلك يا ماهر أيها الفتى الذي جاءها مفتونًا بمعشوقته الأولى . . فدثَّرته وزَمَّلته ووَاستْه قائلة :

- لا عليك يا ماهر . . فعلى حواف الفتنة الحلال يزهر الزنبق وتهطل البركات على القلب الأخضر المعلق . . لا عليك يا ماهر . . فبعض البيوت تعيذك بنورها من شر الصلب والحرق ، فثمة بيوت هي التي تعطيك طوق النجاة!

الجبال يا ماهر خذلت الرحمن وما حملت الأثقال وحملها من هم مثلك . . نفضوا العجز وما همَّهم أن يصلبوا على جذوع النخل . .

ألقيتُ نظرة على الغرفة الوحيدة للمنزل الذي لا يتعدى مساحته ال٢٥ مترًا . . الحمام في المطبخ . . المطبخ في زاوية الغرفة ، السقف كشجرة الزقوم ، الجدران مهلهلة يتّكئ بعضها

على بعض من فرط العجز، طلاء الجدران كجريدة دُلقت عليها كوب ماء فاختلط السواد بالبياض! أسلاك الكهرباء تتمدد وتتلوى كعصا موسى .. في آخر الغرفة شرفة تطل على المسجد الأقصى ..

عندما فتحت باب الشرفة ياماهر وجدتُ نفسي في حضن الأقصى .. الأقصى عن يميني وكنيسة القيامة عن شمالي ..

نظرتُ إليك؛ لأقرأ عيونك وأنت تنظر لفاتنتك الأولى ثم اختلستُ نظرة إلى القبة فشعرت بمدى جمال المشهد وروعته وقلتُ لك:

_حتى سيدنا يوسف -عليه السلام- طلب أن تنتقل عظامه إلى هذه الأرض، وسيدنا موسى طلب من ربه أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر ..!! ليس غريباً أبدًا .. تلك الفتنة التي أشعر بها الآن!

-وعمي عبد القادر يا بهية الروح قال لأبي إنه مستعد أن يبيع كل ما يملك مقابل مترين قبرًا له في القدس!

وتوقفتَ في آخر الجملة! ذرفت عيناك كطفل .. مرّ مشهد دفن عمك في عمّان أمام عينيك .. ثم محاولات أبيك الحثيثة في استخراج إذن في الدفن على ثرى القدس .. بدوت يا ماهر في هذه اللحظة كمقاتل كُسر سلاحه في آخر المعركة لكنه لم ينحنِ وظل يقاتل بكفه! اعتذرتُ لك فقد كنتُ السبب في تذكيرك بهذه الحادثة . استعدت قواك في ثواني!

وأكملت وكأنك تصف أمرًا لا يعنيك .. كانت تدهشني قدرتك على ضبط مشاعرك حيناً وانسيابها حانية رائقة حينًا آخر .. وهذا ما سوف يفسر قرارك الذي ستتخذه لاحقًا!

قلتَ بهدوء :

- لقد كان عمي ثريًا جدًا .. له بيت في كل مكان .. تستطيعين أن تقولي إنه رجل لا ينقصه شيء .. مال وجاه وعز وثراء وأبناء .. سألته مرة عن أمنيته قال :

أنا مستعد أن أبادل كل مالي بقبر في القدس وفي النهاية لم يستطع أن يدخلها لا حيًا ولا ميتًا .

وخرجنا من الشرفة وعدنا للغرفة وأنا أفكر في كلامك عن عمك وأستغرب أنك رأيت وسمعت كل ذلك ولم تبدِ مشاعرك .. وعرفتُ لاحقًا كيف تخزّن هذه المشاعر كوقود لليوم الموعود!

كانت الغرفة أصغر كثيرًا من أحلامنا .. لكنها بالمقارنة بالحلم الأكبر وهو رؤية الأقصى صباح مساء .. أصبحت الغرفة قصرًا .. أصبحت أكبر الأحلام وأجملها على الإطلاق ..

قلتَ لي ونحن نقطع الغرفة إلى الخارج :

سأقوم بترميم هذه الغرفة لتليق بك .. سأصلح السقف وأطلي الجدران .. سنضع السرير مقابل الشرفة تمامًا وسأضع كنبة حمراء أمام السرير مع طاولة مستديرة ، الجدران العارية سأكسوها ، وسنضع طاولة وكرسيين من الخيزران في زاوية

الغرفة . . صدقيني سأجعل من هذه الغرفة المعتمة المشبعة بالرطوبة والعفن . . الخالية من الشبابيك والأبواب . . سأجعلها جنة تليق بحورية . .

عدتُ إلى الغرفة وقفت في وسطها . . أنظر حولي . . كنتُ أستطيع أن أمسك بفتات الجدران بين يديّ . . كان يمكن أن أقع بسهولة بسبب تخلخل البلاط وعدم استوائه تحت قدميّ . . لكنني أستطيع في لحظة أن أصبح غيمة تمطر الأقصى بمجرد أن أفتح الستارة وأخرج إلى الشرفة . .

في هذه الغرفة لن أمشي على الأعراف . . سأدخل جنة الأقصى بلا سؤال ولا سابق حساب . . سأسمع تكبيرات المرابطات مثل موج بحر . . سأرى نظرات العجز تلف الجماعات المتطرفة اليهودية وهن يسمعن أصوات المرابطات تعلو بالتكبير . .

سأترك كل الأشياء المألوفة التي عهدتها في بيت أهلي . .الحوش الكبير الواسع الذي تحيطه أشجار الزيتون المعمرة عن اليمين والشمال . الممر الطويل المبلط الذي ندخل منه لبيوت العائلة . .بيت جدي وبيوت أعمامي . . البيت المعبق بأشجار الليمون والياسمين والرمان ، بسقفه العالي وحجارته العتيقة الحنونة التي بناها أبي بيده! سأترك كل ذلك لأعيش في غرفة صغيرة رطبة وعفنة! في لحظة وخزني الحنين إلى ذلك البيت . . إلى حياتي القديمة فأخذت أبكي دون أن أشعر!

شعرتَ يا ماهر بما يدور في خلدي . . مسحت دموعي بأصابعك . . أخذت بكفي وركضت بي سريعًا إلى خارج الغرفة المهلهلة وقلت لي :

- لن نسكن هنا . . سأجد بيتًا حديثًا . . لا رطوبة فيه ولا عفن . . لا سقف متهالك ولا حيطان مهلهلة ولا مستوطنين يسكنون بجانبنا . . لا أريد أن أرى دموعك . .

جففتُ دموعي بسرعة ، استعدتُ قوتي وقلتُ لك :

لا . . سأسكن هنا لأجل القدس ولأجلك . .

- لن آخذ هذا الكلام على محمل الجد . . سآخذ دموعك على محمل الجد . .

أمسكت يدي مرة ثانية مسحت بباطن كفك على ظاهر كفي فقلتُ لك وأنا أنظر للأقصى . .

- هذا الموقف ذكرني بكلمة قلتها منذ زمن لأمي . .شعرتُ أن هذه الكلمة هي الإجابة المناسبة على مايحدث الآن . . قلتُ لأمي يوماً بعينين دامعتين :

- كرهتُك وكرهت أبي يوماً عندما أعتقل ؛ لأنك حرمتني من زيارة الأقصى بدونه!! وهاهو الطائر الذي مُنع يوماً من التحليق في الأقصى . . هاهو يلحق بأجنحته ويطير صوب الأقصى من جديد! فلا تحرمني هذا الجوار .

***

في الشهور الثلاثة الأولى لزواجنا . . لم أكن أغادر الغرفة تقريبًا إلا بصحبتك . . كنتُ أستيقظ كل فجر على صوت أذان الأقصى . . نصلي . . ثم نجلس معًا على الشرفة . . وكثيرًا ما كنتَ تضعني في حجرك كطفلتك المدللة . . تمسح على رأسي وتقرأ أذكار الصباح وتعوِّذني . . ثم تمسح على بطني المكوَّر الذي بدأ ينبض بجنين كنت تنتظره على أحرّ من الجمر . . كنتَ تفعل ذلك أيضًا عندما أكون حزينة أو منهكة . . تتأملني . . تمسح دمعات عن خدي . . ولم أكن أعرف أن أكثر شيء سأفتقده بعد ذلك تلك الكلمات الدافئة الحنونة وتلك التعويذات المطمئنة!

يوم العرس

ماهر!

يا وتري وأغنيتي!

في يوم العـــرس بسطتَ يدك إليّ وبسطتُ يدي إليك . . ورتلنا معًا «بأيِ آلاء المقاومة تسبحان» .

وعندما تقدمنا معًا صوب القاعة الكبرى تكللنا الدعوات وتحـيطنا زغـاريد النسـوة وأهازيجـهن . . حـينهـا أحـسـستك مـرتبكًا . . شـاردًا . . مـتـشظيًا . . مـثل قطعـة زجـاج أنهكـهـا التكسر!

يعتم وجهي فجأة وأهمس في أذنك :

– مـا بك يا مـاهر؟ كـأنك لست في يوم عـرسك! ابتـسم أرجوك . . ابتسم للكاميرا . .

شددتَ على يدي ودون أن تنظر إليّ همست :

– لا حـيلة لي يا بهـيـة ولا قـوة! بلعت ريقك . . مـرة . . مرتين . . ثلاثة وغبت في عالم من الصمت والغربة .

طوال العـرس لم تتكلـم كلمـة واحـدة . . وفـي الليل بكيتُ كما لم أبكِ من قبل . . كنتُ أتساءل :

– كـيف اسـتطاعت قضـبان السـجن أن تسـتطيل وتمتد إلى

خارجه وتظل مكبلة للسجين؟ السجن جزار . . لا يكتفي بتعليق الجسد . . بل يفتت الروح ويخترقها ويتركها نهبًا لسكين الذكريات تصول وتجول فيه يومًا بعد يوم . .

صرختُ يومها بصمت :

- من قال إن الأسير يتحرر بعد خروجه من السجن؟

في تلك الليلة لم أبكِ ليلة عرسي . . ليلة عمري التي ضاعت . . لم أبكِ حظي . . كنتُ أبكي عيون ماهر الشاردة المرتبكة . . أبكي تلك الطعنة في قلبك وذاك الحصار ، أبكي أنفاسك التي استنشقت ذاك الحب ، وكل خطيئتها أنها أنفاس فلسطينية!

ترى أي ألبوم صور سوف أحتفظ به في درجي؟ وأي ذكريات حلوة ستُلون الأيام القادمة؟! أي قهر وأي عتمة ستغلف صور ليلة العرس الكئيب؟!

في هذه اللحظة كم تمنيت أن أكون بلا ذاكرة . .

في تلك الليلة وعندما عدنا إلى البيت وانتهى الضجيج والزغاريد والغناء ، بدا كل شيء طبيعيًا وعاديًا ، وعدتَ إلى سابق عهدك . .

ألمح الكثير من الحكايا . . أتجول في عينيك فأرى فتى يُسجن لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، ينهي الثانوية العامة ويحفظ القرآن وهو في السجن ، ذلك الفتى الذي استغل انشغال أهله بعرس أخيه ، وكانوا قد سكنوا القدس

حديثًا ، وذهب مع صديق له إلى ذلك الجبل ، حيث كانوا يعرفون مسبقًا أن العديد من الدوريات العسكرية الإسرائيلية تمر من هناك ، جهزوا حجارات المولوتوف التي تعلم صنعها حديثًا ، وبدأوا بإلقائها ، وعندما كانوا ينوون العودة بسلام تمّ إلقاء القبض عليهم .

أحدق فيك أكثر وأكثر . . أفكر فيك ، صغيرًا كنتَ عندما قمت بالعملية الأولى . .

كيف فطنت وأنتَ الطفل . . أن الحرية أمتع من الألعاب وأشهى من الحلويات؟

***

في أشد ساعات الفرح ، يأتي السجن والسجان إليك ، يقف قبالتك تمامًا ، تُفتح القضبان ، تدخل عنوة لساعات وربما لأيام ، تصمت ، تشرد ، تطفئ الأنوار وتبتعد عن الناس ، لا تتحدث إلى أحد أبدًا .

تركض إليك الكلاب المسعورة من كل اتجاه ، تزداد التصاقًا بزنزانتك الانفرادية ، يزداد صوت الضابط وصراخه وضوحًا في أذنك حتى ترى لوزتيه وحَنجرته . الزمن يتوقف كعقرب هرم ، فلا تكاد تعرف الوقت وتقدر الصلوات تقديرًا ، المكان يصبح بلون واحد هو اللون الأصفر الذي يُسلط عليك ليل نهار مع صوت موسيقى صاخب حتى تفقد أعصابك ، تنسل صور أخرى . . تحاول أن تضربها بالفأس حتى تتهشم ، لكنها تعود

وتتراكم وتتركب من جديد، تشيح برأسك بعيدًا عندما تشعر بالضابط الإسرائيلي يبول على رأسك، تشعر بالبول سوطًا من نار يلسعك به، تبلع ريقك فجأة وتبلع .. ثم تتقيأ ذلك البول الذي أرغمك الضابط على شربه.

أشعرك تفقد بصرك للحظات من جراء الصدمات الكهربائية المتلاحقة على رأسك، ثم تستعيده وأنت ترتعش بقوة!

أتعجب من وقوفك فجأة مع أنك كنت مستلق ؛ لأن الصور تعاودك .. يلقونك على ظهرك ويشدون يديك أسفل الطاولة ويقوم المحقق بضربك بالهراوة على صدرك وأسفل رقبتك ومعدتك وأعضاءك الحساسة!

أحياناً أراك تحرك رأسك بقوة .. ترفس شيئاً ما لا أراه ؛ إنه كيس الخيش ذو الرائحة النتنة الذي دهن بالخراء والذي كان يغطي رأسك لأيام!

أراك ترتجف حين تبدو لك أمك النحيلة من خرم الباب مكبلة اليدين تستجدي الضابط شربة ماء، يساومونك على أمك، تقترب الزنزانة الملأى بالفئران والصراصير، تبدو أكثر قربًا من أي وقت مضى .. تغلظ وتغلظ الصور كعقال .. تلتف حول عنقك .. تخور قواك .. فترى طيفًا يلبس البياض، يمسح على رأسك، يبتسم لك، يهمس لك: لا تستلم.

تقترب صورة أمك أكثر وأكثر ساعة النطق بالحكم وهي

تمسك برأسها بين كفيها وتبلع جرحها ثم تطلق زغرودة مدوية . . تصر على الاشتعال رغم نفاد الوقود .

أعرف أن هذه الحالة قد تأتيك فجأة . . صارحتني بذلك أكثر من مرة ، لكن لم أتخيل أن يتكرر المشهد في أجمل أيام حياتي . . يوم زفافنا!

في كل مرة كنت تبلع ريقك وتنزوي بعيدًا عني . . أخاف وتشيخ روحي فجأة . . كنتُ أخشى أن تذهب خضرة حبنا وتصبح يباسًا . . لكنك كنت تفتح ذراعيك واسعًا وتكتفي بالقول :

- تذكرت السجن يا بهية . .

تعلمتُ بعد زواجي منك أشياء كثيرة ، تعلمت عندما أراك تدخل في حالة الصمت والعزلة . . أن أتكلم معك أكثر وأكثر حتى تزهر روحك ، تعلمت فنون البهجة . . أضاحكك وأسليك ، أبالغ في التحنان وسرد الحكايات ، أخاف عليك من الحزن الذي خط أقلامه على قلبك وروحك . . أجرجر الكلام من فمك جرجرة ، أبسّط المواقف وأحللها وعلى حدود الدمع . . أمسح دمعي كي لا تراه!

قلتَ لي يومها :

- كم من شموع تعاند عصف الريح وتحاول أن تبقى مشتعلة ولا يطفئها سوى الكف المرتعشة . . أنتِ كفي التي تحميني من الانطفاء يا بهية ، صوتك انسكاب العطر على

القلب الموجع . . وحين أسمع حروف اسمي على شفتيك يخيل إلي أني أرشف من نهر الكوثر . .

أركضُ خلف جراحك . . أمسحها بلحن الحب ، أغويك بمزيد من الكلام ، حتى تستنشق وردة الابتسامة ، ويلتئم الجرح وتضيء عتمة القلب .

حاولتَ أن تذهب إلى طبيب نفسي ، وانتظمت في الذهاب إليه ؛ لتتخلص من تلك الصور المتراكمة المهترئة والتي تتركب في لحظة وتهاجمك كسرطان . . لكنك في النهاية وجدت طريقة علاجك بنفسك!! فعندما كنت استظهر لك بعض الآيات ومررتُ بآية (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) عرفت أن الدواء يبدأ من عندك وليس من عند الطبيب! قررتَ أن لا تستسلم للسجان الذي يطاردك خارج قضبان السجن . . وبدأت رحلة البحث عن العلاج بنفسك . . بعيدًا عن الأطباء . . ووجدت الطريقة . . انخرطت في أنشطة كثيرة . . تكتب يوميًا . . تقرأ أكثر وأكثر . . تصور معالم القدس معلم معلم . . تصور المآذن والقباب والأبواب والشرفات والزقاق والبضائع والبهارات والدكاكين والمفاتيح والباعة ولو استطعت لصورت الأصوات والروائح . .

في كل ليلة نفتح صندوق الذاكرة ونستخرج عطايا الله لنا . . فنجدها كثيرة . . أكبر من أن تحصى! ورويدًا . . رويداً اختفت الحالة تماماً بعد تسعة أشهر! أي قبل ولادة ابننا عبادة بقليل!

أحـاول الآن أن أربط بين ذلك الفـتى الذي لم يتـجـاوز الخامسة عـشرة من عـمره ، ذلك الفتى الأشـقر النحـيل الذي تنسـاب غـرته على جبـينه ، وبين هذا الرجل المكتـمل البـهاء والجمال ، بذقنه المغروزة ولحيته المشذبة ، أرى نفسي في عينيك ملكة يفـيض وجـهـها فـرحًـا . . تعـدني أن تعـوضني عن ليلة العرس . . بعرس أبهى تتحدث عنه كل القدس!

كفتية الكهف

ماهر!

لمثلك تنحني الكلمات!

في الحب قد يكون هناك أسئلة . . لكن لا يوجد هناك إجابات ؛ فعندما تصل إلى عتبات الحب وتشتعل الجذوة في القلب على حين لهفة ، ستلقي برأسك على صدر من تحب دون أن تفهم لماذا فعلت ذلك!

ستتحدث معه دون أن تتحسس كلماتك ، ستكلمه وكأنك تقف أمام المرآه تكلم نفسك ، وما أجمل أن تجد من يسمعك بلثغاتك وانكساراتك ، بتهجئتكَ للحروف ، بتشظيك وانعتاقك من الدنيا وما فيها!

كانت الإجابات تأتيني عنوة يا ماهر ، لم أكن أبحث عنها ، لم تكن تعنيني . . وكنتَ كفتى من فتية الكهف ، راوده حلم التحرير والتغيير ، انعتق من شنباك الطين وكالنور المنثور انسل من بين الشقوق ليضيء العتمة التي تمادت ، وليفك قيود الغواية التي كبلت الأرواح المنهارة .

مضى الآن أربعة أشهر على زواجنا . . كنتُ خلالها أطفئ

لهب الخوف الذي كان ينمو في قلبي يومًا بعد يوم منذ أن قلتَ لي يومًا :

- يا بهية . . أشعر أن دمي ينهمر مسكاً من كل اتجاه . . والشهادة أروع أسمائي . .

كم توجعني هذه الكلمة . . . (شهيد) تضرب روحي وتنحر فؤادي . . ترفعني عاليًا كموجة ألامس صفحة السماء ، ثم تلقيني وحيدة مرتعشة ومفزوعة على شاطئ يضيق ببحره .

كانت الشهادة وشمًا على صدرك أقرؤه كل حين . . كنتَ تتضوع شذاها . . تنام وتصحو ورئتاك تمتلئ بها .

***

أغلب الأوقات كنا نقضيها بلا مال! أو بالقليل منه . . وبخاصة أننا كنا ندرس في الجامعة . . فقد كنت تدرس اللغة العبرية والمحاسبة ، أما أنا فقد عشقت العربية!

في البيت الذي نسكنه لا ماء ولا كهرباء ، كنا نأخذ من الجيران . . وسرعان ما خذلونا . . أربعة أشهر من المعاناة المريرة . .

في مرة كنا نجهز إفطارًا بسيطًا (زيت وزعتر وكأس شاي) اشتهينا الشاي ، ولم نكن نملك إلا القليل من الماء الذي أخذناه من الجيران . . كنتَ تمسك بالإبريق وأنا أضع الماء وفَلَتَ الإبريق من يدك واندلق الماء أرضًا . .

نظرنا إلى الماء المسكوب كشيء ثمين وغال . . أخذتُ أتنقل

بين صورتك على صفحة الماء المسكوب وصورتك الحقيقية أمامي . . وظهر ذلك العرق الذي في منتصف رأسك ، والذي كان يظهر كلما ضحكت أو غضبت . . وكم كان يبهرني أنك متفرد في كل شيء . . متفردٌ في عشقك للقدس . . متفردٌ في خضرة روحك التي لا تعرف اليباس . . كيف لا ، وأنت تنتظر مطر الشهادة . .

متفرد في شكلك ووجهك الدائري شديد البياض ، متفرد في شعرك شديد السواد . . شديد النعومة واللمعان وكأنه مبلول ، العينين العسليتين المتوقدتين ، الأسنان البيضاء المصفوفة المنتظمة كأنها لؤلؤ منثور . . كلما نظرتُ إليك تذكرت فتية الكهف . .

في مساء ذلك اليوم اشتهينا أوقية كنافة . . نريد أوقية واحدة فقط . . وبدأت مهمة البحث عن النقود . . قمتُ بتفتيش جيوب ملابسي جيبًا جيبًا . . حقائب اليد خاصتي . . الجاكيتات ، بناطيلك وقمصانك ، كل ما يلزم فقط ثلاثة شواكل . . ثلاثة شواكل لصحن كنافة ، وكانت المهمة في غاية الصعوبة . . كنتُ أعلم أنني لابدّ أن أجد هذه الشواكل ، وبقيت أبحث حتى وجدتهم وركضتُ نحوك كطفلة . .

نظرتَ إليّ ، وقلبك يرف كياسمينة هزها هواء ناعم . . حوطت خصري وركضنا صوب الشارع . . تحمل بيد الكاميرا وباليد الأخرى تضم كفي . .

عندما أمسكتَ بيدي . . شعرتُ بتلك الرعشة التي أصابتك عندما لمست يدي لأول مرة . . لم تستطع يومها أن تخفي ذلك . . وما زلتُ أشعر بنغبشة في قلبي ترقص لها نسرينة القلب كلما أمسكت يدي . .

في الطريق المؤدي إلى باب العمود . . تتوقف فجأة . . ثم تتقدم عدة خطوات إلى الأمام . . تطلب مني أن أتوقف تمامًا . . تتأملني طويلاً وسط استغراب المارة واستهجانهم . . أسألك بارتباك :

– ماهر . . ليش بتطّلع فيي هيك؟ خلص بيكفي! كل الناس بطّلعوا فينا!

– لا ، ولا إشي . . مش مصدق إنك مرتي!

– بالله جد شو في؟

– والله مش مصدق إنك مرتي . يا بهية . . قد يمتلئ القلب بما يعجز عنه اللسان . .

وقبل أن تكمل كلامك كنت قد التقطت لي عدة صور . .

××××

وقبل أن ندخل إلى سوق باب العمود .. وقفتَ متأملاً . .

كم تخيلتَ نفسك في أسواق القدس . . أسواق القدس التي تقعُ كلها في داخل البلدة القديمة ، وأغلبها ملاصق لسور المسجد الأقصى . . كان أكثر ما وصفته لك أمك . . أسواق مرصوفة . . بديعة التنسيق . . معتمة في بعض الأحيان . .

ضيقة ومتعرجة حينًا آخر . . لكنها تفتح في الأرواح وهج الخلود . . لقد أردت في صغرك أن تكون هنا . . ولم تتخيل أن الأمر سيكون بهذه السرعة!

قالت لك أمك يومًا :

- في هذه المدينة ستسمع صوت الفاروق مكبّرًا . . ستصلي مع الأنبياء خلف محمد . . ستقبّل جبين الطهر . . وتهدهدك يد جبريل . . في هذه المدينة ستشم رائحة من سبقوا من الأمويين والعباسيين والمماليك والعثمانيين . .

كان مجرد تخيل أنك تسير في تلك الأزقة والممرات الضيقة المعتمة ، والتي ينساب النور من فتحاتها العلوية على استحياء . . يغمرك بالدهشة ويلملم شتات روحك . . فكيف يصبح الأمر عندما تقف مباشرة أمام باب العمود!!

باب العمود . . هو المدخل الرئيسي للمسجد الأقصى وكنيسة القيامة وحائط البراق . . عندما تخطو الخطوة الأولى إلى داخله تفتح الأسواق حضنها واسعًا لك . . لتجد سوق خان الزيت ، وسوق القطانين ، وسوق الصاغة ، وسوق الحصر ، وسوق العطارين ، وسوق اللحامين . . حيث تختلط روائح العطارة بروائح اللحم لتخرج رائحة مذهلة لن تحظى بها إلا هنا في القدس . .

وطبعًا هذا الباب يقودك أيضًا إلى الحرم الشريف . .

. . . ذلك الباب الذي يتكون من قوس ضخم يرتكز على

دعامتين من الحجارة المنحوتة . . عندما تشاهد باب العمود ستدرك فورًا بأنه بُني ليكون قلعة أمنية شاهقة الارتفاع يعلوه قوس نصف مستدير وفتحات وثقوب مدببة فوقها أبراج مزركشة . . ندخل من الباب الذي عرضه قرابة الأربعة أمتار ونصف . . منقوش على الباب (لا إله إلا الله) . .

تُجهز الكاميرا . . تلتقط صورًا للنقوشات والأبراج والأقواس . .

أقول لك :

- هذا الباب يسمى باب النصر أيضًا . . فقد كان يدخله ا لفاتحون . .

خارج الباب تنتشر قوات الشرطة الإسرائيلية . . تضحك فجأة وتقول :

- وينك يا هيدريانوس تيجي وتشوف اليهود إلي منعتهم من النظر إلى المدينة من بعيد وليس فقط دخولها!!؟

ندخل السوق وكم أوجعك أن ترى أغلب الدكاكين مغلقة . . فهي لا تفتح إلا أيام الجمعة والسبت والأحد! أذكر أنك سألتني عن سبب إغلاق المحلات فأجبتك أن السبب هو ضريبة (الأرنونا) الباهضة التي يفرضها الاحتلال الإسرائيلي على أصحاب المحلات من أجل إجبارهم على ترك محلاتهم وترك القدس لاحقًا . . هذا عدا عن الجدار العازل الذي بنته «إسرائيل» وخنقت به القدس من ثلاث جهات والهدف طبعًا

إجبار المقدسيين على الرحيل . .

أشعلتَ الكاميرا . . وأخذت تصور الدكاكين والبضائع . . هذه الدكاكين المرهقة المتعبة ذكرتك بدكان جدك في القدس الغربية . . تلك الدكان التي مافتأ جدك يتحدث عنها ويحمل مفاتيحها . .

نخرج من باب العمود . . على يميننا يقف (أبو توفيق) أشهر بائع كنافة في القدس . . عربته متواضعة . . الشيب يغزو الرأس ولا يغزو الروح التي تدندن بحب القدس . . يعزف بملعقته على سدر الكنافة . . وبحركة ساحرة وسريعة يسكب لنا أوقية كنافة . . نأكلها على أنغام لحنه المقدسي . .

بكاء الرجولة طهر

ماهر!

يا فلكي!

وكنجمة تشتاق العودة إلى فلكها .. كنت أشتاقك .. أشتاق كلماتك وحكاياتك وضحكاتك!

وكقمر غطاه الغيم .. أرفض أن أسطع إلا بعد أن يطل وجهك في سمائي ..

تعود إلى البيت بعد يوم عمل شاق .. فقد كنت تعمل في كل شيء .. بيع الإسفنج ، توزيع البيض أو البسكويت لأصحاب المحلات .. تعود إلى المنزل والضحكة تسبقك ويفتح الشوق ذراعيه لحضن الغائب ..

تفتح الكاميرا وتبحث عن الصورة الأخيرة التي صورتها اليوم .. تتحدث عن بطل الصورة بمنتهى الرقة والإعجاب :

- صوّرتُ اليوم صورة لطفل لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره يبيع الكعك المقدسي عند باب الأسباط .. اشتريتُ منه كعكة ولا أشهى! وعندما سألته عن سر الطعم وأنه لا يشبه أبدًا الكعك الذي كنت آكله في عمان ، مع أنه يشبهه في

الشكل والحجم . . فشكل الكعكة المتوازي نفسه ، والحشوة المتوسطة الحجم نفسها ، والسمسم ذاته . . فردّ عليّ الطفل :

- قد يكون السِّر في ماء القدس! نظرت له مليًا . . تأملتُ شعره الأشقر المجعد وقسماته الناعمة مع شامة كبيرة وداكنة فوق شفته مباشرة . . كانت عيناه تشعان ببريق غريب . . بريق الطفولة الذي بعثره بريق الرجُولة المبكرّ . .

تأملته طويلاً ثم قلت له :

- وقد يكون السرّ في دماء الشهداء التي تسير في جذوع الشجر! وقد يكون السر في تراتيل الأنبياء الراقدين تحت ترابها!

أُنصتُ إليك ، وأنا التي لم أكن قد انتبهت من قبل لطعم الكعك المقدسي رغم أنني ابنة القدس ، وكأن الاعتياد يفقد الأشياء مذاقها . . قلت لك يومها :-

- وأنت يا ماهر لم تكن تصدق ما كان يُحكى عن كعك القدس إلا بعد أن تذوقت طعمه!

تُريني الصور التي التقطتها للقدس وللفتى المقدسي الذي يحمل فوق رأسه بسطة الكعك . . أحدّق طويلاً في الصورة . . وأنت تحكي لي عن ذلك الفتى الذي يقف في زقاق مرصوف عند باب الأسباط . . المدخل الوحيد للمسجد الأقصى من ناحية السور الغربي ، والمدخل الوحيد لمدينة القدس القديمة . .

واجهة الباب من الحجارة الضخمة وفي منتصف الواجهة بوابة مستطيلة تنتهي من فوق بشكل قوس وأعلى الباب

أسدين . . أعتقد أنهم يُمثلان شعار الظاهر بيبرس . .

كان الفتى نحيلاً جداً . . في البداية رفض التصوير ، ولكن بعد أن رأى الصورة وأعجبته قلتَ له سأنشرها على الفيس بوك . . فوافق بشرط أن تكتب تحتها :

(طفل مقدسي . . في الثانية عشرة من عمره يضطر يوميًا بعد خروجه من المدرسة أن يبيع الكعك حتى يساعد والده في مصروف البيت بعد أن أغلقت سلطات الاحتلال دكانه في باب العمود لعدم قدرته على دفع ضريبة الأرنونا واكتب أيضًا . .

هذا الفتى سيكبر وسينهي دراسته في التاريخ حتى يقول للعالم عن أكاذيب إسرائيل في الهيكل والحق المزعوم في الأرض . . سيقول للعالم أن دولتهم قامت على أكذوبة! سيقول لهم إن ارتباطهم بفلسطين محض هراء . . فبني إسرائيل رفضوا أن يدخلوا الأرض المقدسة مع موسى ، كما رفض أكثرهم العودة إليها من بابل بعد أن عرض عليهم الإمبراطور الفارسي قورش ذلك! واكتب أيضًا . .

إن هذه ليست أرض الميعاد ، فهذا الحق سُلب منهم بعدما قتلوا الأنبياء ، وأساءوا الأدب مع الله ، فقالوا إنه يلعب مع الحيتان والأسماك ثلاث ساعات ، وأنه بكى على الهيكل حتى صغر حجمه!!»)

يضيء وجهي وأنا أسمع الحكاية . . وأقول :

قد تبدأ الرجولة مبكرًا . . حتى قبل أن تبدأ الكلام . . حين يشتعل الغضب في عيني طفل يعرف عدوه!

- والله الحكايات اليوم كلها غريبة . . ما الذي يفعله هؤلاء الأطفال؟ ما الذي يقولونه؟ إنهم أكبر من سنهم ، ليسوا مجرد صغار ، إنهم مثقلون بالوجع وحجم الدمع لا تسعه مآقيهم ، والصرخة داخل حناجرهم أحدّ من السكين!

صمتتُ قليلاً . .وسرحتُ مع كلمات الطفل ثم قلتُ لك وأنا أشير إلى بيت الجيران :

- ابن جيراننا . . البيت الثالث على الشمال ، كان يلعب في الحارة ، سمعت صوته ، كأنه صوت رجل كبير ، نظرت من الشرفة ، رأيت أولاد اليهود قد اجتمعوا عليه وهم يشيرون عليه بسخرية ويقولون له :

- اطلع من حارتنا!

قال لهم :

- الدار دار أبونا واجوا الغُرب وطجونا!

- هي حارتنا ، هي مش أرضكم ، حتى صاحبكم هرتزل كان بدو يبعثكم على قبرص أو أفريقيا أو أوغندا ، ولأنه ما عجبتكم فكرة الدولة السياسية اليهودية ، وما تحمستوا لها فكّر هرتزل إنه يخلّي القضية يهودية دينية ، حتى يلمّ يهود العالم ، فما لقي غير فلسطين!

هاي البلاد بلادنا . . ما لكم ولا شبر يالَمَ ، أنا أبوي هون

وجـدي وجـد جـدي! إنت مين إلك هون؟ أغلبكـم من يهـود الخـزر، مـا إلكم صلة بفلسطين ولا ببني إسـرائيل، وإذا لازم ترجعوا لمكان فلازم ترجعوا لروسيا!

نزلت بسرعة خفت عليه . .

فوجدت أمه قد سبقتني، أخذنا الولد رغماً عنه وأدخلناه إلى المنزل فدعتني لفنجان قهوة وقالت لي :

- حقك عليّ، كان لازم أزورك وأبارك لك يا عروس، بس المستوطنين عامِين ضوِّي!

ثم أكملت وهي تنفض غبار الخوف عن صدرها :

- شـرفة بيتنا تطل على حـائط البراق وبيتنا يقع بجـانب الكنيس، في ساعات الليل يقفز المستوطنون من الكنيس إلى داخل الشـرفـة ليكملوا سـهـرتهم عندنا! وعلى عـربدة وسُكر وصراخ وكـلام مـبتـذل وسخ وغناء . . وعندمـا نسـتـدعي لهم شـرطة الاحـتـلال لنشكوهم، نتـفـاجـأ بردهم وهو أن يبـقى المستوطنون في الشرفة يعبثون ويفعلون ما يريدون طالما لم يعتدوا علينا!

وفي النهار، وعندما أريد أن أنشر الغسيل على الشرفة . . تأتي القوات الخاصة الإسرائيلية المكلفة بحمايتهم وحمـاية الكنيس وتطلب مني أن آتي بإذن من الشرطة حتى يُسمح لي بنشر الغسيل!

في كثير من الأحيان أشعر بالانهيار وأني سأترك المكان،

بخاصة عندما يأتي زعران اليهود ويخلعون ملابسهم ويرقصون وهم عراة! ثم نعود ونفكر بروية أنا وزوجي ونقول :

- لن نستسلم ، سنبقى كجمر فوق رؤوسهم . .

أحببتها يا ماهر . . أحببتُ هذه الجارة وسخاء تحملها من أجل القدس ، وتعلقتُ بذلك الفارس الصغير ، ابنها ، حجمه صغير ، لون عينيه مثل اللوز الأخضر ، وجهه كله عذوبة ، يبدو هادئًا وصامتًا ، لكن عندما يتكلم . . يصبح رجل سياسة محنكًا ، يفهم في القضية ويرد عليهم بكلام منطقي وتاريخي . .

أذكر أنك رشفتَ قليلاً من القهوة حين قلت فجأة :

- آخ يا بهية . . حكايتنا اليوم تلخص الوضع في القدس . لا أحد يهتم بالقدس ، في كل يوم يُسلم الاحتلال إخطارات بالهدم لأحياء كاملة ، تهجير ، إغلاق للأسواق والدكاكين ، حصار ، سحب هويات ،مصادرة أراضي ، ومع ذلك لا أحد يسمع ولا يهتم . . حتى نشرات الأخبار لم تعد تهتم كثيرًا لما يحدث . المزاج العربي سئم القضية ، أخبار الانقسام الفلسطيني ، وتصريحات قادة الأحزاب ، هي الوجبات الدسمة للإعلام على حساب القضية والقدس وتهويدها!

اليهود لايتكلمون كثيرًا! لا يتقنون بهرجة الخطابات والبيانات! إنهم يدفعون للمؤسسات اليهودية العالمية التي تقوم بشراء الأراضي والمنازل عندما تصعب المصادرة ، يتفقدون

البيوت العربية بيتاً . . بيتًا . يعرفون من فيها ومن هو خارجها! من مات ومن هو باق على قيد الحياة من الورثة! من الموجود منهم في الخارج! يزورون الوثائق كما زوروا التاريخ ، يشوهون ويسرقون!

وهذا بالطبع يخدم الاحتلال ، ويجعله يتمادى حتى على حرة فلسطينية تريد نشر غسيلها!

في تلك الليلة شعرتُ بصخبٍ في أحشائي ، لأول مرة أشعر بحركة جنيني! أحسستُ بموسيقى تتدفق من أوتارها الحياة ، أرى الطفل أمامي ، يشبه طفل الكعك أو طفل ابن الجيران ، كلاهما جميل ورجل . أشعر بنغبشة الحليب في صدري ، ألمس خده الناعم كالورد بشفتي ، يجتاحني شعور لا أستطيع وصفه بالكلمات ، أتخيل فرحتك بولادته . فرحتي بفرحتك قد تفوق فرحي بهذا القادم . . فالطفل القادم هو نصف النصر .

حاولتُ أن أُخرج صوتي ، لكن دمعي سبقني . أمسكتُ بيدك ووضعتها على بطني ، عندما شعرت بركلاته . . بكيتَ ؛ أخذت تحمد الله ، عندما قلتَ الحمد لله كان لها طعم مختلف! شعرتُ بها كزنبقة تمر على القلب فتشعله يقينًا ، شعرتُ بها عطرًا يعلن عن نفسه .

في كل موقف كنت أقرؤك من جديد ، وأعرف أني لم أخطئ التهجئة .

كنتَ تحمد الله على كل شيء ، وعلى أبسط شيء ، فكيف وأنت تتلمس نبض جنينك!! تحمد الله على اللقيمات البسيطة التي تأكلها! ويزول عجبي عندما أتذكر أنك سُجنت لمدة خمس سنوات وأنت طفل صغير . . وفي السجن حُرمت من كل شيء ، حتى من أبسط اللقيمات! ذلك الفتى كان يخبئ وجبة (ورق اللسان) التي أدخلتها أمه على حين غفلة من السجان ، يأكل كل يوم حبتين ليستمتع بها أطول وقت ممكن ، وقد تأكل أكلاً يرميه الناس للقطط والكلاب وتعافه النفس! فكيف لا تكون رقيق القلب مستشعرًا لأبسط النعم .

بكيتَ يوم أخبرتك أني حامل ، وبكيتَ عندما حملت عبادة بين يديك كما تبكي وأنت خاشع في صلاتك . . بكيت بكاء جعلت كل من في المستشفى يتعجب لأمرك . .

لم أعتد أن أرى رجلاً يبكي ، لكن بكاءك كان قوة ، فأنت ورقة مكشوفة تعلن فيها عن صدق مشاعرك ، اكتشفتُ أن البكاء ليس ضعفًا ولا لحظة عُريّ . . فبكاء الرجولة طُهر . .

حارة المغاربة

اترك نوافذ الصبر مشرعة ، فزهور النصر العتيقة تنبت على النوافذ المتعبة وقلائد الياسمين تنتظر هامات الفاتحين . .

لم تكن تحلم يا ماهر ولا تتخيل بأن تصل مراكبك المتعبة إلى هنا!

تقف على الشرفة قبالة المسجد الأقصى تمامًا ، المسجد على شمالك وكنيسة القيامة على يمينك ، تحدق فيهما طويلاً ، تستنشق هواء يعزف على أوتار قلبك لحنًا ولا أرق! ويسكب في روحك فيضًا من السكينة والوداد . .

وعندما أجلس قبالتك تمامًا ، وخلفي القبة الصفراء تلتمع كنجمة سقطت من السماء . يقفز قلبك وتردّد :

- وتأتين يا بهية الروح . . فتحفني الملائكة ، وتصير الدنيا لحناً لأغانينا ، أمشي على صراط الحب بلا وجل ولاعثرات .

وأضحك لهذا الفتى صفي القلب طاهر الأنفاس . .

تمسك بيدي . . فتنتعش شتلة الروح التي أوشكت على اليباس قلتَ لي يومها :

كمْ أنا ممتن لكِ ، فلولاك لما سكنا هذا البيت ، أردتُ بيتًا

جديدًا حديثًا يليق بعروس جميلة وأردته بيتًا مقدسيًا عتيقًا، مليئًا بالرطوبة والحشرات، لا لشيء إلا لأجلي!

صباح واحد يطل على هذا المشهد يكفينا لتضيء أيامنا القادمة ولترتوي أحلامنا.. فكيف إذا كانت صباحتنا قدسية العينين!

من الشرفة تطل يا ماهر.. تراقب ما كنت تتلهف لرؤيته طفلاً صغيرًا. الأقصى.. أذان بلال.. الأقصى.. القرآن الذي يُرتل.. فرصة التقاء الأرض بالسماء.. الأقصى.. المرآة التي تعكس منسوب الغفلة والنسيان ولون الخطايا وملامحها!

جنود مدججون بالسلاح يروحون ويجيؤون.. أيديهم على الزناد، أفواج من المستوطنين يقتحمون ساحات الأقصى تحت حماية الجنود، أصوات التكبير تعلو من المرابطات.. تجول بنظرك لتقف عند الحائط الغربي للمسجد، ولأول مرة منذ أن سكنا هذا البيت تستوقفك حارة المغاربة وكأنها لم تُسوَّ بالأرض!

تضيء مخيلتك بحروف أمك المنتصبة.. أمك التي كانت تخيط لكم في كل ليلة ثياب العودة، تتدفق الذكريات كسيل عرم، ذكريات خُيّل إليك أنها سالت في أودية سحيقة، مازال صوت أمك يرن وهي تلملم بقايا حارة المغاربة.. لتعيد تركيبها بيتًا بيتًا.. شارعًا شارعًا، تعيد تركيب الحارة أحيانًا بدمعة، وأحيانًا بضحكة مجلجلة تخرج من القلب عنوة..

ترشف رشفة من قهوتك، تتابع الناس والمارة والباعة، ترى المآذن والجوامع الأربعة في الحارة، ترى حائط البراق .. حبل الله الممدود إلى السماء .. تسير في خطوات متسارعة .. يُخيل إليّ أنّ أقدامك تتحول إلى أجنحة تطير إلى سماء الإسراء، تدخل إلى مقام الشيخ والزاوية الفخرية!

تقف فجأة يا ماهر .. تحدق طويلاً، تبلع ريقك، وكأنك تريد أن تثبت صحة كلام أمك (القدس لا تفتح ذراعيها لمن يغلق عينيه ولا تمد بساطها لمن لا يقف على قدميه).

تحدق مليًا بالحي المسوّى بالأرض، والذي تحول إلى ساحة المبكى!

تراقب الحارة وهي تُهدم، تراقب ٣٤ دارًا تُنسَف في ليلة العاشر من حزيران ١٩٦٧ من قبل جرافات الاحتلال .. تُطل المقبرة الجماعية من تحت السور (سور ساحة المبكى) مقبرة جماعية لفلسطينين، قُتلوا، وكل ذنبهم أنهم رفضوا المغادرة خلال مهلة الربع ساعة المعطاة لهم من قبل جيش الاحتلال!

تُنصت لوقع أقدام اليهود واهتزاز أجسادهم في الأسفل، تسمع استغاثات مكتومة للأحجار والأشجار، وتكويك الحجارة والمآذن وهي تتهاوى! وهي تودع تاريخًا ممتدًا في ذاكرة الأرض ويفوح عطر في السماء للشجر والحجر، تسبيح لا ينفد .. تسمع أقدام المهجرين عنوة، رموش عيونهم مثقلة بالعجز والدمع، أبواب تُفتح، حاجيات تؤخذ على عجل، حارة كاملة

تهدم ، وجع ناضج ، احتراق التراب ، تفحم الأماني والذكريات!

أعتقد أنك الآن فهمت كلام أمك ، شعرت بوجعها!

لقد كانت تربت على كتف الوطن المحترق بمزيد من الحكايات المشتعلة ، تزرعها في ذاكرة البذور لعلها تثمر ولو بعد حين . لم يكن بيدها أي سلاح . . سوى هذه الحكايات وهذه البذور المتعطشة!

لقد كانت تطفئ ألسنة اللهب التي تشتعل في غرف القلب . . بمزيد من الأماني!

ويعود صوت قوي يخترق أذنك يا ماهر ، إنه صوت بن إيتان مجرم الحرب يقول :

«إذا كانت فرس محمد قد صعدت إلى السماء فلماذا لا يصعد المسجد أيضًا» (مسجد البراق) لقد قام بطحنه بشكل كامل بحيث لم يبق له أثر يُذكرا

تصحو يا ماهر على أصابعي تهزك برفق لترى حارة المغاربة وقد تحولت إلى ساحة المبكى . . بصعوبة تلتقط أنفاسك ، تغمض عينيك ، تبلع ريقك ، تفتح عينيك . . يأتيك صوت أمك :

- النسيان هو أول الهزيمة!

تحكي يا ماهر عن أمك . .

كانت تخاف على نفسها وتخاف علينا أن يتسرب النسيان

إلى قلوبناوأرواحنا ، كانت تخاف من الغفلة ، كانت تخاف أن نألف حتى نتحجر ، كانت تطالبنا بأن نسمع ونرى وأن لا نغلق أعيننا عندما ترتعش القلوب والأجساد! كانت تخاف أن تتحول أعيننا إلى صلصال فتكون النتيجة مزيدًا من الانهيارات والضياع . .

كانت أمي تغرينا بالبقاء في المدينة يا بهية ، تغرينا بتلمس كل ذرة تراب فيها ، تجعلنا نصنع فكرة العودة ، ونرويها في مخيلتنا ، حتى إذا حانت لحظة اللقاء ، صار الزيت نورًا ونارًا!

عندما كنا نغلق أعيننا ونحن نرى أشلاء الشهداء . . كانت تصرخ فينا :

- لا تستسلم لقشعريرة جسدك حين ترى قسوة الأشلاء ، ثق بأن التين والزيتون كانا في البدء دمًا ودمعًا . .

بكلمات أمي عرفنا القدس يا بهية ، لمسنا طهر دمها ، وصمت نزفها ، سكنتنا قبل أن نسكنها . . عرفنا بأن القدس حين تضيء القلب يتدلى مفتاح السماء وتبوح لنا بسرها . .

كانت أكثر ما تخافهُ علينا . . ليس شحوب الوجه ، بل شحوب الذاكرة ، لذلك ، كانت تصر على إعادة بعض الحكايات . . تعيد وتزيد ونحن نستغرب منها ولكننا نستمتع!

هذه الحارة ، وقفها الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين على المجاهدين المغاربة الذين شاركوا بفتح بيت المقدس . . الحارة تقع في الجانب الجنوبي الغربي لمدينة القدس

إلى الغرب من المسجد الأقصى ، ويحدها من جهة الجنوب سور القدس وباب المغاربة ، ومن الشرق الزاوية الفخرية ، ومن الشمال المدرسة التنكزية وقنطرة أم البنات ، ومن الغرب حارة الشرف . .

نحفظ الحدود والشوارع والزقاق والأسواق ونشم رائحة التوابل ونرى ألوانها الباهرة ونتلمس الأقمشة في الأسواق ونذوق الكعك . . تعيد وتزيد . . تذهب إلى حكاية أخرى ثم تعود إلى الحكاية الأولى والثانية والثالثة وكأنها تقوم بمراجعة لإمتحان قادم . .

ولجحنا في الامتحان يا بهية . أذان الأقصى لا يفارق أذني ، وحكايا الشجر والحجر والبشر . . المسألة لا تعدو أن تكون مسألة وقت ، والمسافات لا وزن لها ؛ فنحن على الأبواب وتكبيرنا يعانق الساحات!

هل مازلت تذكر هذه الكلمات يا ماهر؟

الظمأ قاتل بعد الريّ

يا طاهر الأنفاس . .

يضيق حرفي عن بلوغ وصف يليق بك . وكيف لي بحرف يسبر غوري ويُخرج المكنون ثم ينثره تحت قدميك فتشتعل الروح؟!

كيف سأصوغ حكاياتنا وأهزها لتستيقظ فترسم ما يعتمل في قلبي؟!

أضحك الآن وأنا أتذكر الحكايا ، أقص عليك بعضها فتضحك أيضًا ، فأقرر حينها أن أصل إليك عبر إغراء الحروف . . سأكتب حكايتي معك يا ماهر . . لتكون هداياي إليك في سجنك .

كنتُ أزعل منك على أمور أراها الآن تافهة ، تدخل البيت فتقيمه ولا تُقعده ، تضع كل قطعة في مكان ، فردتا الحذاء كل واحدة في جهة ، الجاكيت في جهة أخرى ، تتوضأ وتخرج ويديك تقطر من ماء الوضوء ، لا تنتبه للأرض الملتمعة البراقة وقد أمضيتُ يومًا في تلميعها . تدخل إلى المطبخ وتتذوق الأكل قبل أن أضعه على طاولة السفرة ، أغضب من فوضويتك

وتغضب من حرصي الزائد على النظافة والترتيب ، أقول كلامًا في حقك أندم عليه لاحقًا ، أقلّب شفتي تعبيرًا عن سخطي ، أراك بطرف عيني تمسك ابتسامة توشك أن تفر من شفتيك . . لا تريدها أن تخرج لأنك زعلت من طريقتي في الرد! وفي نفس الوقت يضحكك منظري الغاضب وشفتاي المقلوبتان . وعندما تبدأ دموعي بالانسكاب تنظر لي كدالية تحوط ثمارها وتقول :

- يا بهية الروح . . أنا ما بزعل منك ، أنا بزعل عليك .

في كل مرة أتذكر خلافًا بسيطًا كذرة ملح تذوب بسرعة في أمواج ماء صاف ونقي ورقراق . كنتَ تخاف عليّ وعلى تعبي ، فمن شدة تنظيمي واهتمامي بالنظافة . . أظل أرتب وأمسح وأشطف ، لا أستريح أبدًا وأحيانًا أصبح عصبية إذا رأيتُ شيئًا متسخًا . .

كنتَ تأخذني من يدي وتُجلسني بجانبك واضعًا يدك على كتفي وتقول ممازحًا :

- تعالي واقعدي جنبي . . يمكن يجي يوم وتتمني هالقعدة!!

اهتز عندما استرجع صورتك في ذاكرتي ، أحاول أن أفتش عن أخطائك ، هفواتك ، فلا أجد!

يا ترى هل كنت حقًا ملاك هبط عندي لمدة ثماني سنوات ثم تركني والنار تغلي في مرجلي؟!

تركتني ولم تعرف أن القشعريرة الأولى لم تغادرني .

ألم تعرف يا ماهر بأن روحي مبتلة بماء عشقك الذي لن يجف؟! ألم تعرف بأن قلبي كان يابسًا متشققًا ، فمرّت حزمة نورك فاستيقظ وارتوى وأنبت عبادة ومريم . .

يا ماهر الظمأ قاتل بعد الريّ والفقد أشد وطأة بعد الامتلاك!

يا ماهر . . هل كنتَ حقاً بلا أخطاء؟ أم أن عين المحب لاتلتقط سوى الجمال والبهاء والكمال؟

إن بهجة الحب ليست في زخرفة الكلمات بل هي أن تضيق بك الكلمات فيصبح الصمت هو عين الحب!

وإذا أرجعتُ البصر مرتين يرتدّ إليّ البصر فأحلّق في سمائك من جديد وأرى عشقك في تلك الدموع الخاشعة على سجادة الصلاة ، أسمعه في نبرة صوتك الغافي وأنت تقول :

وأنا بحبك كمان ولذلك قصة أضحك عليها كلما تذكرتها!!

في أول زواجنا كان نومك ثقيلاً جدًا ، فإذا أردتُ إيقاظك لا بد أن أقوم بدفعك عن السرير لتقع على الأرض حتى تصحو . ثم بعدها أصبح نومك ثقيلاً عن كل شيء إلا عن صوتي!

قد تسحب عني الغطاء وأنت في عزّ نومك فأقول لك ماهر رجّع لي (الحرام) سحبتو عني . . فترجعه طائعًا!

ماهر زيح لهناك شوي ، رح أوقع عن السرير! فتوسع لي!

كنتَ تفعل ما أقول لك دون أن تصحو أو تفتح عينيك وكأن قلبك خاوٍ إلا من صوتي! وكأن روحك نائمة لكنها يقظة في محرابي . .

وقد نسهر أنا وأنت نتابع فيلمًا . . تحضر ربع ساعة ثم تغط في نومك العميق ، أنظر إليك وقد غفوت ثم أقول :

- ماهر . . إنت صاحي؟

تقول بسرعة :

- نعم!

- ماهر أنا بحبك .

- فترد بسرعة

- وأنا كمان!

كم كنتَ مدهشًا في يقظتك ونومك ، أحدثك وأنت نائم ، أهمس لك ، تحرك رأسك . . أعرف أنك نائم ، لكنك تريد أن تقنعني أنك معي ، تعيش معي كل اللحظات . . فأطير محلقة . .

تصحو فأحكي لك ماحصل ، فتضحك وتقص حكايتك في السجن مع النوم :

- عندما كنت في السجن لم أكن أصحُ على العدّ!ينادوا عليّ . . مرة ، تنتين ، وثلاثة ولا حياة لمن تنادي . . يعملوا استنفار عليّ في السجن ثم يجدونني غاطس تحت (الحرام)

ومرة بعد مرة اقتنعت إدارة السجن أن نومي ثقيل فصاروا يعدّوني وأنا نائم .

***

أضع رأسي على كتفك ، أغمض عيني وأحلم . .لا ، لم أكن أحلم قط ، ها أنا أسير بصحبتك في شوارع القدس الغربية ، تُسمي لي أحياء القدس الغربية بلسان العارف الخبير بالأرض . .

القدس الغربية هي التي احتُلت عام ١٩٤٨ . . حي البقعة الفوقا ، البقعة التحتا ، الطالبية ، القطمون ، الحي الألماني ، الحي اليوناني والدجانية والوعرية ، الرابستون .

كانت القدس الغربية أكثر إزدحامًا من القدس الشرقية . . الأشجار أكثر وأعلى وألمع ، الشبان يعتمرون الطواقي الدائرية على رؤوسهم ، البنايات أعلى وحجارتها لامعة وجديدة ، القطار الخفيف يمر وسط المدينة ، اللغة العبرية تُرهق سمعي وتُشوّه روحي .

هنا يا ماهر تختلط الذاكرة . . هنا تنوح القدس وتشهق كزيتونة انكسر جذعها لكنها مازالت تحاول أن تستطيل في عمق الأرض!

هنا تتبعثر الحكايات ، لكن هذه الحجارة مازالت تحتفظ بعبق من كانوا ، تحتفظ بالصرخة الأولى للمواليد ، بهمسات وضحكات الجدات في الليالي القمراء ، هذه الحجارة شاهدة

على أن العرين باق حتى وإن غفا الأسد!

يا لروعة القدس وهي تمد يدها لك والجرح في خاصرتها يثغب! ويا لعذب مائها والملح يشتعل في حلقها كالحريق . .

وتلتمع الدمعة في عينك يا ماهر ، تبكي في سجودك ، تبكي في قراءتك للقرآن ، تبكي عندما تحمل طفلنا ، وتبكي عندما تمر أمام البيوت العربية القديمة التي يسكنها الآن آلاف اليهود أمثال الأديب اليهودي (حاييم عوزي) ورئيس الكونغرس اليهودي (كونر غولدمان) .

وأسمعك ترتل بصوت عال وجميل ما نُقش على لوحات رخامية مثبتة على واجهات البيوت مثل «الملك لله الواحد القهار» .

هذه الحجارة هي صبر من رحلوا وهم ينزفون قهرًا ، هذه الحجارة تعرف من بناها ومن كحّلها ، تملك قلبًا خاشعاً للترتيل ، هذه الحجارة لها ذاكرة وهي بانتظار من يغزل خيوط العودة .

تقف يا ماهر قبالة فيلا (هارون الرشيد) تصمت فجأة ، ترتعش وتحدق طويلاً ، أمسك بيدك ولا أتركها ، تزرع فيّ دفئًا ملامحه الأمل ، أبقى صامتة ، أشعر برائحة الياسمين تتخلّل وجهي وملابسي ، أحدّق في شجر الليمون الذي يتمايل راقصًا ، أستغرب كيف تتداخل رائحة الليمون بالياسمين لتُنتج رائحة مميزة .

أبقى ملتصقة بك وكأننا جسد واحد ، نتأمل الفيلا المبنية من الحجر الأبيض القاسي اللامع الصافي الذي كان يُجلب من قرية دير ياسين ، نتأمل واجهة البيت والأقواس . .

يتغير لون وجهك ، فأرتعش خوفًا عليك . . أسألك :

- ما بك يا ماهر؟

- فترد ويبدو صوتك محملاً بالقهر :

- هذه الفيلا بناها زنغيل من زناغيل القدس اسمه (حنا بشارات) بناها عام ١٩٢٦ ، في الطابق الأول سكن قاضي محكمة العدل العليا الإسرائيلية وفي الطابق الثاني سكنت غولدا مائير . . تخيلي! سكنوا على نفس الأثاث الذي اشتراه صاحب الفيلا ، وعندما جاء أمين عام الأمم المتحدة في ستينيات القرن الماضي لزيارة غولدا مائير أمرت بقلع اللوحة الرخامية التي كُتب عليها بالعربية اسم الفيلا قبل أن يصل (همر شولده) .

صاحب الفيلا الفلسطيني أصبح لاجئًا في عمان وقد استطاع في مرة أن يتسلل ويرى بيته من الخارج ، لكن لم يُسمح له بالدخول طبعًا واشتعلت ذاكرته من جديد ، اشتعلت الأشلاء وتتبع أفئدة الرجال المكسورة وارتعشت شفتاه وأصابته الحمى التي لم تنطفئ بعد ذلك . .

سألتك يومها :

- هل أنت متأكد أنّ هذا البيت هو بيت حنا بشارات؟

قلت لي مؤكدًا :

- لقد رأيته في عمان ، قال القصة لوالدي ، لقد رأيتُ صور الفيلا والبيت لم يتغير ، وكأن السنين لم تجرِ عليه .!

قلتَ لي أيضًا :

في الطالبية كانت هناك مكتبة خليل السكاكيني ، والآن اليهود يستخدمونها روضةً للأطفال ، هناك أيضًا بيت المفكر الفلسطيني (إدوارد سعيد) الآن يستخدم مقرًا للقنصلية اليونانية . كل بيوت العرب يا بهية يسكنها الآن أساتذة الجامعة العبرية والأدباء والأطباء والقضاة .

***

ونمشي في شوارع القدس الغربية . . نمشي وتتشقق الروح بالملح الذي طغى ، وتهب ريح ناعمة ، معطرة بشذى الليمون والرمان فأوقن بأن الريح لواقح! والسنابل حبلى لكنها لا تنثر قمحها بغير المنجل!

هدم الدار

ماهر!

ياعشق الفجر للضوء!

أيعقل أن نسير في الاتجاه المعاكس ونحن نظن أننا نمشي على ذات الطريق الذي احتضن غربتنا وشوقنا وجوعنا للوطن!

هل ستذوب الملامح وتختلط رويداً . . رويدًا . . هل ستذوب ملامح القصيد وتختلط حروف العطش للقدس رويدًا . . رويدًا!؟

ما الذي حدث؟ ولماذا أقول هذا الكلام؟

كالشلال الهادر . . نعم هذا هو ماهر . . يعمل ليلاً نهارًا . . يعمل في كل شيء . .

تبيع البيض والبسكويت والأسفنج وكل ما يخطر على بال أصحاب المحلات التجارية ، بقيت كذلك إلى أن أنهيت دراسة المحاسبة واللغة العبرية من الجامعة ، كنت تدرس يوم الإمتحان فقط ، أسمّع لك في بعض الأحيان ونتبادل الأدوار فتسمع لي وتلتمع الدهشة في عيني حين لا تخطئ! كنت تحصل على أعلى الدرجات ، وأنا التي كنت أدرس ليل نهار . . أحصل على علامات أقل وكنتُ أعزو السبب لحفظك القرآن الكريم!

بعد حصولك على البكالوريس . . انتقلت للعمل في شركة دواجن وأعلاف وتدرجت فيها حتى أصبحت مديرها المالي والإداري . . وبدأت الأموال تجري في يديك مثل زبد البحر . . تشبيه جيد . . نعم مثل زبد البحر كثيرة ، حتى أنني تخيلت أنك لو أمسكت حجرًا لصار ذهبًا في يديك . وتوسعت أعمالك وصرت شريكًا في مصنع كبير من مصانع القدس . . وفي غضون سنة صرت تاجرًا يشار لك بالبنان .

ويمر الزمن كشمعة تتوهج بسرعة . . وبدأت تلاحق الزمن . . فاشتريتَ سيارة جيب كبيرة سوداء ، وانتقلنا من دارنا في البلدة القديمة إلى شقة حديثة وجميلةٍ وفارهة ، لكنها مطلة على الأقصى أيضًا . . أغدقت علينا في الرحلات والسفرات ، حجزت لنا في أرقى الفنادق . . نذهب إلى المطعم . . ندفع فاتورة قد تكفي لإطعام عائلة مقدسية لشهر . . أشعر بالحزن والغربة!

أتأملك واشعر بانكسار الوهج الذي كان يملأ قلبك . . أشعر كأنني دخلت متاهة معك . .

هل أنت الذي أدخلتني هذه المتاهة؟

ماهو ذنبك يا ترى؟

ذنبك أنك كافحت وعملت وسهرت وتعبت وسال عرقك مدرارًا كما تسيل الأموال بين يديك؟!

هل ذنبك أنك نقلتنا إلى شقة فارهة في القدس واشتريت لنا أفخم السيارات؟!

ماذا أريد منك؟

هل أريد منك أن تبقى في البلدة القديمة نعاني الرطوبة والعفن والحشرات فلا شمس ولا هواء؟

هل أريدك أن تبقى متحملاً اعتداءات المستوطنين المتكررة؟

هل أريدك أن تبقى هناك و تصرخ كما صرخ جارنا ذات يوم عندما اقتحم المستوطنون منزله ، ورقصوا في شرفته ، وأطلقوا الرصاص الحي فارتعبت زوجته وأسقطت جنينها؟

أم أريدك أن تهدم بيتك بيدك كما حدث لصديقك جابر؟

جابر الذي ذهبنا لزيارته ذات يوم في بيت حنينا حيث أشجار المشمش تعانق البلدة على امتداد البصر . . يمرّ ذلك اليوم في ذاكرتي وكأنني أستمع الآن لجابر وهو يصف لنا كيف كان يستمر قطاف المشمش في البلد لثلاثة أسابيع فقط . . تخرج كل القرية للقطاف بعد صلاة العصر . . الثمار اللامعة المتمايلة تكون نصيب التجار ، أما تلك التي خرج عسلها وسقطت على الأرض فتجمع لصنع المربى أو لتجفيفها . .

عندما ذهبنا لزيارة جابر لم يكن موسم المشمش . . لكنني تخيلت الثمرة وهو يصفها . . الحبة بين يديه بلونها البرتقالي كأنه قطفها الآن ، قسم الحبة إلى قسمين ، أزال النواة للتجفيف ، ثم تراقصت الحبة بين يديه وقبل أن ألتقطها ، بلعت ريقي أتهيأ للطعم العسلي!

قال لك جابر :

الثمار لم تعد كما كانت أيام جدي وأبي . . المطر غزير ، والأرض ولاّدة ، لكن أعناق الشجر ممتدة أعناقها صوب الراحلين . . الشجر حزين يا ماهر . .

ورغم وقوفها صامدة . . رغم ثباتها . . إلا أنها غارقة في الحزن والصمت .

بعد أقل من شهر . . ذهبنا لزيارته مرة أخرى فهالنا المنظر!!

جابر وأولاد عمومته وجيرانه يهدمون حيطان داره!

الأطفال يبكون بحرقة وهو يمسح دمعهم ، يضعهم في حضنه ، يلتصق بهم ، يرسم لهم أملاً جديدًا يقول لهم :

– سأقيم لكم مدينة ألعاب فوق الدار المهدومة ، وسوف تدخلونها مجانًا وبلا تذاكر . .

وتنفجر الكلمات كالبركان . .

– كلفني بناء البيت عشرين ألف دولار ، وقد تقدمت عدة مرات بطلب ترخيص ورفضوا ذلك! عشر سنوات وأنا أنتظر رخصة البناء . صارت عائلتي كبيرة ، ولا أستطيع البقاء في غرفة في بيت أهلي فبنيت ٨٠ مترًا فقط . .

وعندما عرف الاحتلال . . حرروا مخالفة بقيمة ٣٥ ألف دولار ، وقمتُ بدفعها حتى لا يهدموا المنزل ، إلا أن بلدية الاحتلال ورغم تلقيها كامل المبلغ لم تصدر ترخيصًا وأمرت بالهدم . .

والآن . . حتى لا أدفع لبلدية الاحتلال عشرين ألف دولار بدل أجرة جرافات ونفقات للبلدية . . قلت أهدم بيتي بيدي!

عرفتُ يومها معنى أن تهدم بيتك بيدك . . أن تهدم بيتك بيدك يعني أن تحمل روحك على كفك ثم تعصرها عصراً فتسيل ساخنة تحرق ما تبقى من كبرياء . .

يرتمي على الأرض بعد كل ضربة فأس ، يغرس أظافره في حضن الأرض ، يتظاهر بالصمت والرضا ، ينهض مجدداً ، يخاف أن يستسلم للوجع والقهر ، يخاف أن ينزرع الذل في روحه . . يتمتم :

أن تهدم بيتك يعني أن تحمل سياط عدوك التي يجلد بها ظهرك لتجلد بها نفسك . . لا لن يستطيع العدو أن يأخذ مني شيئًا إلا إذا كنت منكسراً منحنيًا . .

«النصر الحقيقي . . هو أن تشعر بالنصر داخل نفسك أولاً . .»

هكذا قلت يا ماهر . .

هل أفرح لو كنت مكان جابر يا ماهر؟

ماهر . .

أنت لم تقصر في حق أهلك يومًا ولا في حق جيرانك وأصدقائك . . تنفق بسخاء على أخيك وزوجته وأطفاله . . أخيك الذي دخل في غيبوبة بعد وقوعه وهو يعمل في البناء ، تستأجر لصديقك جابر وأطفاله . . وتتكفل بالأجرة مدى الحياة

وتتكفل بنفقة أيتام الكثير من شهداء الأقصى . . عرفتُ ذلك لاحقًا!

لماذا أشعر بعدم الارتياح إذاً؟

وكأن الفرح حكر على الغرباء؟ وكأن الوجع صهرنا وأعاد تشكيل قلوبنا وملامحنا فماعدنا نتقن سوى الحزن؟

أخاف على نفسي وعلى أطفالي . . أخاف عليك ياماهر واستوحش الطريق ولا أحكي! أقول لنفسي :

يكفي ماهر ما رآه في حياته ، أسر وسجن وتعذيب ومرض نفسي . . ألا يحق له أن يعيش يومين؟

لكنني قلت :

وماذا بعد؟

ماذا بعد الرحلات والسفرات والسيارات والأثاث ، ماذا بعد البالونات والورود والضجيج والتصوير؟

أتمنى أن نصنع شيئًا ما . .

تنهدت يومها وكأنك فهمت مايدور في بالي . .

تنهدت وسط دمعة تتأرجح على أهدابك :

- لا تخافي يا بهية . . الدنيا في يدي . . وليست في قلبي .

اكتفيت بإيماءة رضا . . غرستُ يدي في يدك . . مضينا نكمل طريقًا لا نعرف نهايته!

إلى رمّ

ماهر!

يازهر القصائد!

نسافر إلى رمّ في عطلة نهاية الأسبوع ، تحملنا بسيارتك اللكزس الحديثة ، نوقفها قريباً من الجسر . .

الأولاد يحبون الرحلات كثيرًا ، لكنهم سرعان ما يملّون ويشتاقون للعودة إلى القدس ؛ لذلك لم نكن نغيب عن القدس أكثر من أسبوع .

عبادة أكثر تعلقاً بالقدس من مريم ؛ ربما لإنه الأكبر سنًا . يقول إنه يحب سوق خان الزيت ، يحب شارعه الطويل الذي يحتوي على عدة دكاكين متقابلة في صفين ، يحب سقفه الذي على شكل قبو نصف برميلي ، يحب الفتحات الصغيرة التي تسمح بالإضاءة . يصمت طويلاً ثم يقول فجأة : أخاف أن ينهار!

تسأله :

- ولماذا؟

- يقول :

- عندما ذهبت مع جدي آخر مرة . . كانت أجزاء من الأرض تتخلخل تحتي ، عند مدخل السوق قال جدي لي : إن ذلك بسبب الحفريات التي تقوم بها بلدية الاحتلال وقال لي أيضًا : إن الاحتلال يسرق حجارة السوق القديمة ويستبدلها بحجارة أخرى ، إنهم ينهبون ويسرقون تاريخ المدينة حتى يمحو تاريخها ويزوّرون كما يشاؤون!

تقول مريم :

- وأنا أحب القدس . . أحب الآذان!

تقود السيارة ، تسترق النظر إلى الجبال والتلال ، فالاحتلال لم يترك جبلاً إلا وبنى عليه مستوطنة . . تبلع ريقك ، تبقى صامتًا ، تنظر إلى الخلف ، تقرأ دعاء السفر وتداعب أقدام عبادة ومريم .

في كل مرة نسافر فيها كنت يا ماهر تعيد أسماء المستوطنات المحيطة بالقدس وأسماء القرى العربية المغتصبة التي أقيمت عليها . .

أنتَ تسأل وعبادة يجيب . . أنا مبهورة بإجابات عبادة فهو لا يخطئ! ومريم تعيد كلام عبادة وأحيانًا تسبقه!

تشير بيدك من الشباك وتقول :

- يا عبادة هذه المستوطنة اسمها الجامعة العبرية فيجيب عبادة : مقامة على أراضي قرية العيسوية ولفتا!

وهذه المستوطنات على شمالنا اسمها ريخس شعفاط . .

ينظر لها عبادة ثم يقول : وهي مقامة على أراضي قرية بيت حنينا وشعفاط!

وتلك التي في أعلى التلة اسمها عطروت . . ينظر عبادة إلى أعلى ويجيب :

- أقيمت على أراضي قلنديا والرام وبير نبالا وبيت حنينا!

طيب والتلة الفرنسية يا عبادة؟

- أقيمت على أراضي لفتا وشعفاط

عندما نقطع الجسر وندخل إلى عمان يتذمر عبادة ويقول إنه لا يرى فيها شيئًا غير حجارة فوق حجارة!

عندما وصلنا إلى رمّ بدأت الأخبار ترد إلينا ، فقد سمعنا من الراديو ونحن في طريقنا من عمان إلى رمّ أنه حصلت عملية خطف لثلاثة جنود صهاينة!

في تلك الليلة لم ننم!

لم نصدق الخبر في البداية! فكيف استطاع شابان أن يقوما بعملية الخطف داخل أخطر المربعات الأمنية في الضفة ، كيف استطاعا أن يفعلا ذلك مع كل الحصار الذي تفرضه السلطة ومع التنسيق الأمني؟!

قلت لماهر :

- إن أمسكوا بهم فالسلطة هي السبب!

وفعلاً المصادر الإسرائيلية وصفت التنسيق الأمني بينها وبين السلطة بالعميق!

بدأنا نتابع الأخبار لحظة بلحظة، نتنياهو يجتمع بالساعات، يخطط ويتوعد ليرد على مقتل ٣ مستوطنين ويخطط لاغتيال القيادات ويهدم البيوت انتقاماً لثلاثة مستوطنين!

نشعر بقشعريرة وخزي ونحن نسمع محمود عباس يدين العملية ويطالب بمحاسبة الجناة!!

أنظر إلى ملامح محمود عباس جيدًا وأقول لماهر:

- أعرف وجه عدوي جيدًا.. لا يمكن أن أخطئه! لكن ما يرعبني أن كل الوجوه صارت تشبه وجه عدوي ولا أستطيع التمييز!

لم نصدق ما يحدث..

من هذا المارد الذي خرج مجدداً من حضن التنسيق الأمني ليقول: انتهت اللعبة السخيفة.. فلا يمكن أن تُقبّل اليد النازفة السكين! من هذا الذي عاد يتنفس هواء فلسطينيًا؟!

من هذا الذي خلق فينا فجرًا جديدًا؟!

إما أن يرحلوا وإما أن يرحلوا ليس هناك خيار آخر فهذه الأرض لنا فقط!

لم نصدق حتى عدنا إلى الجسر ودخلنا فلسطين وفي أثناء عودتنا كان هناك تفتيش دقيق، هيجان، غضب، جيبات عسكرية تنتشر في كل مكان، إغلاق لمداخل بعض المدن كما

رأينا . . نصب عشرات الحواجز العسكرية التي لم تكن موجودة من قبل . . الحملة لم تقتصر على مدينة دون أخرى بل شملت كل المدن . .

أغلقوا الجمعيات الخيرية . . فتشوا المنازل ، اعتقلوا ما يزيد عن ١٠٠٠ أسير سابق و ناشط . .

نتابع الأخبار بشغف . . عشنا أجمل ١٩ يومًا والجنود مختفون ولاخيوط تحل اللغز ، الصفعة كانت مؤلمة وحادة ، في الحقيقة هي ليست صفعة بل ثلاث صفعات .

فعملية خطف الجنود صفعة وعدم معرفة مصير المختطفين صفعة و١٩ يومًا جعلتهم كالمجانين أما الصفعة الثالثة فهي قدرة المطاردين الخاطفين على التخفي!

وكالتماع قوس قزح في العيون العاشقة . . تتشكل فلسطين حرة من جديد . .

كل يوم تعود من عملك . . تقلّب القنوات الإخبارية . . تتسع عيناك عندما تسمع خبر عثور الجيش الإسرائيلي على جثث المستوطنين الثلاثة في حفرة حفرها الخاطفون في (خربة أرنبة في حلحلول شمال الخليل بعد ١٩ يومًا من حملته العسكرية) .

وأصبح للأخبار مذاق مختلف . . وجُن جنون الاحتلال . . كانوا يفتشون كل شيء حتى خُيِّل إلي أنهم يفتشون تحت كل حجر . . واعتقلوا الآلاف تحت اسم (جزّ الرؤوس الكبيرة) .

عند الثالثة فجرًا . . أعلن الشاباك أنه حاصر منزلاً قرب مسجد الرباط في حي الجامعة بمدينة الخليل ، المنزل الذي تحصن فيه الشهيدين ، بعد ذلك تبين أن الاحتلال يحاصر المنطقة ويطلق الرصاص الكثيف ويجري عمليات تفجيرفي المكان وقام بقصف المبنى الذي تحصن فيه الشهيدين بالقنابل الحارقة والفراغية . . وتمّ اغتيال الشهيدين بعد مطاردة عنيفة . .

نسمع ضابط الإسعاف الذي في جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني وهو يقول على التلفاز بأنه شاهد قوات الإحتلال وهي تخرج جثة مغطاة بكيس أسود ، وتمّ منع طواقم الإسعاف من الإقتراب . وطلبوا بعد ذلك من والده الحضور إلى الارتباط الإسرائيلي للتعرف على جثة ابنه . .

بعد تلك الحادثة بدأتَ تتغير كثيرًا يا ماهر ، بدأ يشع ضياء آخر من حولك ، يجذبني الضياء كفراشة ، أدور حوله ، أنظر إليه بتمعن ، أفهمك من نظراتك وإيماءاتك وحركاتك . . لكنك في هذه الأثناء بدوت لي غامضًا ، لم أعرف سرّ الضياء وبدا كأنني أتعرف عليك لأول مرة!

لقد عانيت كثيرًا مع الاحتلال . . سُجنت وعُذبت وخرجت بعقدة نفسية لازمتك طويلاً لكنك استطعت في النهاية أن تنتصر عليها . . لكن معاناتك الحقيقية كانت مع من يعرفون الحقيقة ومع ذلك لايريدون رؤيتها . .

يعرفون كل الإجابات . . فالإجابات داخل كل فلسطيني

حر ولكنهم أرادوا إجابة واحدة هي إجابة العدو . هؤلاء هم من عذبوك أكثر مما عذّبك اليهود . .

في الفترات الأخيرة كنت تحب أن نفطر فطورًا ملوكيًا . . الآن لم تعد تأكل إلا قطعة خبز مدهونة بالزيت واللبنة!

وأصبحت تهوى اقتناء السيارات الحديثة . . وفي كل سنة تبدل سيارة . . لكنك الآن قمت ببيع سيارة الجيب السوداء واشتريتَ سيارة بسيطة للغاية تفي بالغرض فقط .

أصبحت تاجرًا ذكيًا جدًا ، كل من في القدس يعرفك ، في كل مرة تربح تأتي وتقص علي كيف استطعت أن تقنع المشتري . . كنت تأتي بالعالم وتضعه بين يدي . .

الآن جئت إليّ وقلت :

- أريد أن أصبح تاجرًا مع الله . .!

أصحو ليلاً فأجدك ساجدًا باكيًا . .

تقول :

- يبدو هذا الوطن رخيصًا ومتاحًا حينما يكون بين يديك ، لكنك إن وجدته بين يدي عدوك ستدرك فورًا كم هو غال وثمين . . أبحث عن الوطن يا بهية . . خطوة واحدة تجعلني أملكه بين يدي . .

شعرتُ أنك تقول لغزًا لم أفهمه في ذلك الحين!

تكثر من العمل في المنزل على غير عادتك ، تجهز حسابات الزبائن ، ديونهم المؤجلة ، تفصلها تفصيلاً دقيقًا ،

أوراقك مبعثرة هنا وهناك ، آلات حاسبة بعضها صالح وبعضها تعطل من كثرة الاستخدام . .

الطابعة تعمل طوال الليل ، رسم جداول ، كتابة أسماء التجار ، توقيع فواتير بيع وشراء . . لا أخفيك يا ماهر . . كنتُ سعيدة بهذا التحوّل والتغيير ، بهذا التنظيم والترتيب الذي كنت أطالبك به دومًا والذي طرأ على حياتك فجأة . . قلتُ في نفسي :

لقد بدأ يتخلى عن فوضويته التي كانت تصبغ حياته ، صار يشبهني!!

بعد أشهر قليلة سأكتشف سر هذا التغيير المفاجئ!

أعود للوراء حينما كنت تضحك مني وأنا أعيد ترتيب الفراش عدة مرات ونحن فيه . .

كنتُ أحب أن أرتب الأغطية صفًا واحدًا . . أما أنت فلا تكترث لذلك . كنت أقوم في منتصف الليل وأعيد ترتيبها تضحك وتقول :

والله مجنونة!

فأرد :

الجنون هو عين العقل . . وأحيانًا هو أجمل من العقل . .
أنام في منتصف السرير فتستغرب أني أترك كل تلك المساحة! وتنام في بضع سنتيمترات!

كنا دومًا نتساءل ماذا بعد الموت؟! ماذا سيصنع كل واحد

منا بعد غياب حبيبه؟ كنت أقول لك . . إنني أريد أن آتيك إلى الجنة ورائحة جسدك عالقة بجسدي!

وكنتَ تقول لي :

- لا تقلقي . لن أدعك وحدك . . سأطلب من الله أن آتيك كل ليلة في المنام لتأنسي بي!

لكن في تلك الليلة كرهت السؤال . . قلتُ لك : لستُ مستعدة للغياب!

صمت قاسٍ يخيم على ليلنا . . أتساءل بصمت :

- أتُراه يسرج خيل الرحيل وأنا لا أدري؟!

أم تراه يقيس منسوب يقين الحب؟ أم تراه يهيئ سنابلي الحبلى بالحب لعبث النيران؟!

أرتبك ، أرتعش ، تفور الدماء في عروقي فأنا لا أطيق هذا الحديث . .

هل يحتضر الحب ويموت؟

في تلك الليلة كانت كل كلمة تشي بالرحيل الأبدي . .

وتخضر عيونك فجأة ويضطرم فيها العشب الزاهي ويعلو نبض قلبك . . تتمتم :

- الحب لا يؤلمه الرحيل ؛ لإنه يراه استعدادًا للقاء الأبدي . .

أشعلت النار في قلبي . .

وأكملتْ :

- سأبقى أتهجى الحب في محرابك . .

لا أدري لماذا لم أكن أصدق أنك ستبقى على ذكراي لو أنا مت!

أجبتك بفتور :

- أنتم الرجال لا تستطيعون ذلك . . من اليوم الثاني ستبحث عن عروس أخرى .

تحدق فيّ بذهول وانكسار وتهمس :

- لقد ظلمتني وجرحتني . .

أتأمل مجددًا في تلك العينين فأجد الحزن الصادق يملأهما . . إلا أنني كنت أكابر . .

شعرتُ بالأسف ، خجلت لأنني ظننتُ بك سوءًا ، ترك ذلك طعمًا مرًا في حلقي .

بعد أسبوعين غيّرت كلامك . . وأصبحتَ تقول لي :

- لو متِ سأتزوج عليك ؛ لأنني لا أدري ماذا ستصنع بي الدنيا وعليك أن تفعلي ذلك .

غضبتُ وارتجفت الدماء في عروقي . . شيء في داخلي يكبر كل يوم ولا أعرف كنهه! يترك أثرًا في صدري ولا ألمسه . أسمع صوته ولا أتبين حروفه .

قلتُ لك يومها بغضب :

- ولكنني لن أتزوج إن مِت .

تناولت يدي دون أن تضع عيني في عينك وقلت لي :

- قد نولد نتيجة موقف ما وقد نموت نتيجة موقف أيضًا!

ولدتُ من جديد عندما التقيتُ بك . أتدرين يابهية عندما كنتُ أنظر للدنيا في يد أحدهم أراها ناعمة وبراقة كشال حريري وعندما أصبحت بين يدي اكتشفت كم هي هشة ومجعدة كإصبع عجوز هرم ، وكم تساءلت لماذا تبدو لي الدنيا هكذا؟!!

الحياة وهم يا بهية!!

وكم كنتُ أطرب لسماع هذا الكلام أشعر بأنني وإياك روح واحدة .

كلمات متقاطعة

ماهر!

يا كحل العين!

صباح العاشقين ليس كأي صباح، صباح يزدحم بالأشواق وأنين الوسائد، ومساؤهم متعبة قناديله بالانتظار.

ها هي الورقة البيضاء تنتصب أمامي من جديد.. تدعوني إلى لقائك، هذه الورقة تغدو صماء بكماء فإذا مستها يدي النازفة أضحت ثرثارة.. ففي كل حرف عذابات أنثى!

كم أشتاق لعودتك للبيت!

كان كل شيء يبدو طبيعيًا.. كان الأسر والموت.. أبعد ما يكون عن خاطري، إنه شيء يقع خارج مدّ بصري وخيالي..

لم أكن أفهم الإشارات!

لم أعِ ماذا يحدث وماذا سيحدث!

استلقَيتَ بجانبي على السرير وهمستَ لي:

- لا توقظي الأولاد للمدرسة، قاطعتك:

- يجب أن يذهبوا! لماذا الغياب دون سبب؟

أجبت:

- لازالوا صغارًا ، لن يضرهم غياب يوم ، أريد أن نذهب معًا إلى المطعم لنفطر ، وبعد ذلك سآخذك إلى بيت أهلك . . التفتُّ إليك وقد راقتني الفكرة!

تنظر إليّ وكأنك تحرسني بعينك الدافئة ، تحصي أحلامنا . . تقول لي :

- أتخيلنا على سفينة تجوب العالم ، قد يبدو القعر عميقًا ومعتمًا تحتنا ، إلا أن ذلك لا يهمنا مادمنا مع بعض . وقلت أيضًا إنك تتمنى أن نذهب للعمرة هذا العام وعندما نعود تريد طفلاً جديدًا!

بعض الكلمات يا ماهر كأنها شتلة نعناع . . أنعشت روحي وجعلتني استرسل في أحلامي ، ربما أردتَ أن تترك ذكرى جميلة قبل يوم من ذهابك!!

وأنا أستعيد هذه الكلمات لم أكن أعرف ما وراء التأتأة والاضطراب ، أستعيد الكلمات فتنكشف لي مغاليق الأمور وأضحك من غبائي!

لماذا لم ألحظ أن صهيلك مُتعب؟ أم أن قوة كلماتك جعلتني أدور في فلكها بلاتوازن!

تذهب لغرفة الأولاد ، تداعب أصابع أقدامهم ، تدغدغ خواصرهم ، تندس في فراشهم ، ثم تقوم وتفتح النوافذ وتريهم الطائرة الورقية التي صنعتها لهم كمفاجأة ، تحمل مريم إلى الحمام كما تعودت أن تفعل كل ليلة قبل أن تبلل ثيابها .

ترجعها وتلبسها ثيابها وهي تعترض تريد مزيدًا من النوم مثلي ، يخيل إلي وأنا أراكما أنه لا أب يبادل ابنته حبًا بحب مثلك ومثل مريم!

ثم تقفز على سرير عبادة ، تفرك وجهه بشقاوة ، تداعب شعره الأشقر ، تغسل وجهه ، تلبسه البنطال والقميص ، أراقبكم من بعيد وأنت تمشط شعر مريم وتضع الساعة الجديدة في يد عبادة وتقول له . . لقد أصبحت رجلاً . . تحملهم إلى خارج الغرفة ، أنظر إليكم فأصاب بالخرس فبعض الحب لا يُشرح!

نذهب للمطعم ، تطلب من عبادة أن يصورنا ، فأضحك ، وتسألني عن سبب ضحكي :

وأقول :

- فول وحمص يا ماهر بدك تصور؟ شو بدك الناس تحكي علينا؟ قلت لي : يحكوا إلي بدهم ياه ، المهم احنا نكون مبسوطين .

أوصلتني عند أهلي ، وفي الطريق سمّعت لك سورة البقرة . . استوقفتنا آية ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ .

تقول مندهشًا :

- هل هؤلاء من البشر؟ هل يملكون ذاكرة سمكية؟ كيف انمحى مشهد النجاة من ذاكرتهم بهذه السرعة؟ لم يكن قد

مضى على مشهد غرق فرعون أمامهم سوى أيام ومع ذلك يطلبون إلهًا آخرا! يبدو أن الذل والعبودية لاقعر لهما أبدًا!

ومن اعتاد الانحناء أنّى له قامة منتصبة!

عندما عدتَ العصر، أعطيتني دفترًا أسودَ صغيرًا ومفتاح سيارة وقلت لي: احتفظي بهم. سأنزل وأقف على باب العمارة..

بعد أقلّ من ساعة اتصلت بي.. وقالت:-

أنا رايح مع صاحبي روّحي لحالك..

غضبتُ كثيرًا لأنني شعرت أن في الموضوع سرًا لا تريدني أن أعرفه! وتساءلت: يا ترى ماذا يخبئ ماهر؟

رجعت مع الأولاد وحدي، وحاولتُ الاتصال بك مرارًا، ولكنك لم ترد إلا بعد مرور ساعات، مما زاد في توتري وشكي وقلتَ لك:

- هناك شيء غريب!

- الله يسامحك بتشكي فيّ.

- أنا متأكدة أن هناك جزءًا ناقصًا في كلامك!

المضحك المبكي في الموضوع أن عباراتك المتقاطعة وتصرفاتك المتناثرة التي تشبه قطع الفسيفساء كانت تتراكم بجانب بعضها البعض حتى حدث ما حدث.. وأنا لم أكن قد انتبهت لهذا الشرخ الذي سيصيب حياتي إلا بعد فوات الأوان!

الدفتر الأسود الذي ناولتني إياه قبل ذهابك كنت قد كتبت فيه كل مخططاتك، لم يخطر ببالي أن أفتحه.. فأنا أعرف أنه دفتر خاص بالعمل..

في تلك الفترة كان عرس أختي، ورتبتَ كل أمورك في زحمة انشغالاتي الكثيرة في ترتيبات وتحضيرات العرس، كنتَ تتحرك بسهولة، تخطط، تدبر، تكتب، تحصل على سيارة إسرائيلية، تركنها في كراج العمارة، تفعل كل شيء ولا أنتبه!!

لو لم يكن عرس أختي لكشفت أمرك بسهولة.. فالتصاقنا الشديد ببعض في الوضع العادي يجعل أشد الأمور عتامة.. واضحة وبيضاء بالنسبة لي ولا لبس فيها!

في عرس أختي كنت تختلس النظر إلي من بعيد وعندما رجعنا إلى البيت كنتَ تتأملني وكأنك تراني لأول مرة وكنتَ تردد:

- والله إنك ملكة..

الحياة يا كحل العين تشبه كلماتنا.. كنتُ ملكة معك، فكل الأشياء التافهة والبسيطة في نظر الغير كان لها معنى معك..

الآن أستعيد هذه الكلمات.. وكأنني أستعيد ضمادات لجروحي.. أنظر إلى المرآة فأرى نفسي بعيونك.. وأطرب لكلماتك.. وفي مرات كثيرة حطمت المرآة! لا تستغرب

ذلك .. كانت تذكرني بك .. لكنني أعود وأشتري مرآة حتى لا أستوحش ..

الآن أعيش في رحلة استعداد دائم للقائك المرتقب، وفي أحيان كثيرة أشعر أنني أعيد بناء سفينة حياتي من جديد حتى تليق بخروجك!

أتساءل: هل عرفتُ ماهر حقاً؟ قد أجد جوابًا لهذا السؤال لاحقًا ..

ماهر .. أنت كنت تعرفني أكثر من نفسي .. كنت تقول لي:

- يكفي أن أنظر إلى عينيكِ فأعرف ما يجول في خاطرك، أعرف إن كنت راضية أو غاضبة ..

هل عرفتك حقاً؟ هل كنت تملك عدة وجوه وأنا لا أدري؟ هل أظلمك إن قلتُ ذلك ..

لو عرفتُ وجهك الآخر لما تركتك تفعل مافعلت!!

وجهك الآخر كان مضيئاً لدرجة أنني لم أستطع النظر إليه!!

لن أفهم ذلك إلا بعد حين .. سأبعد هذا السؤال عن رأسي لإنه يتعبني ويرهقني ..

لكنني على يقين بأن وجهك مثل شتلة عذّبها انتظار الماء ولكنها ما جفت!

أحيانًا أشعر أني أعرفك أكثر من نفسي .. كنتَ تقبّل

يدي كل ليلة كقديسة وتسألني :

- هل أنتِ راضية عني؟

أومئ بعيني وأسألك كيف حال العقدة؟ فتضحك وتقول على حالها . .

لا ننام أبدًا ونحن متخاصمان! ترمي لي قبلة في الهواء أمام الناس ، في الشارع ، بين الأقارب . . أرتبك ، أضطرب ، أخجل ، وتقفز روحي فرحًا ، أحسد نفسي على عطية الله لي وكأن بعض البشر كالترتيل . . فكيف إذا كان زوجًا!!

رائحة الصبح معك . . تجعل صباحي سكري الطعم ، ويهدل الحمام على كتفي . . تعود من المسجد بعد صلاة الضحى . . تجهز البطاطا المقلية ، تتركها جانبًا حتى أقوم أنا بوضع البيض فوقها حينما أستيقظ . .

أمير الدار والكلمات وسيد الفجر . .

كان الإفطار والعشاء مسؤليتك دومًا . . تصنعهم دومًا بنفسك . . كنتَ تتظاهر بحبك لذلك الأمر ربما لأنني كنت أستثقل الصحو مبكرًا وأحب النوم كثيرًا . .

ساعات الصباح لديّ مقدسة . . كلما أردت النهوض شعرتُ بنفسي أنني أريد العودة للنوم!

وكأنني كنت أحب الإغفاء وأنا أسمع صوتك . . تأتي بجانبي . . ألتحف الغطاء أكثر وأشده . . تهمس في أذني بأنك جهزت البطاطا . . فطّري الأولاد ، وبعد ذهابهم للمدرسة

أيقظيني لنفطر معًا . . لكنني بقيت أتململ كعادتي . . فنهضت إلى المطبخ وجئتَ بالقهوة والشوكلا وبعض الموسيقى وجلست على طرف السرير تتأملني :

لم تكن تحسن التعبير عن مشاعرك وأحاسيسك . . كنا نثرثر كثيرًا وفي كل شيء ، ولكنك كنت تصمت عندما يتعلق الأمر بوهج الحب . .

أكان الصمت أعلى صوتاً؟ أكنت أسمعه أكثر من الكلمات؟

فرحت وقمت أشرب القهوة ، خجلت من نفسي وقمت لتحضير الإفطار . .

قلت لكَ :

– لا تزعل مني ، بدل أن أشكرك أبقى مستلقية في الفراش ، فقلت :

– احفظي الدرس . . أنا ما بزعل منك . . أنا بزعل عليك ، بدي ياك تكوني دائمًامبسوطة ومرتاحة . .

أفطرنا ، وقمت لترتيب غرفة الأولاد . . جئت بعد أن مشطت شعرك . . اقتربت مني . .

– هذه وصيتي هنا بين الكتب ، في هذا الدفتر ، أخشى أن يمزقها الأولاد . .

قلتُ لك . .

– خبئها في غرفة النوم إذن!

أخذت الورق من الدفتر ونظرت إلي بتمعن وقلت لي . .

- لا تقرئيها . .

في هذه اللحظة أحسستُ أنني سأصرخ . . سأقع ، لكنني تمالكت نفسي . . قلت لك . . لماذا تستفزني هكذا؟

لو أنك لم تقل ذلك لما قرأتها أصلاً!

أحسستُ أن هذه الوصية هي أول الدمع . . أول المجهول . . مع أنك كنت تجدد كتابة الوصية ، لكن اصرارك هذه المرة على عدم قراءتي لها سكب الشك في قلبي!

عدت وقلت لي :

- احلفي انك ما رح تقرئيها .

حينها وضعت ألف علامة استفهام . . غضبت وخرجت مسرعة من الغرفة وتمتمت بغضب :

- يبدو أنك لا تثق بي ، لا داعي لأن أحلف . . وأجهشت بالغضب والخوف في آن واحد . .

لحظات . . وعدت وقد أحضرتَ لاصقًا ولففت به الوصية . . حينها ذبلت سنابلي دفعة واحدة . . شعرت بانكسار أمواجي . . انتبهت للأمر وأخذت تدور ورائي من غرفة لغرفة حتى ترضيني . . أخذت تطوف حولي وكلك ولع ووله . . قلتُ لك . .

- خلص سامحتك بس بذي وقت لحتى أرضى .·. اتركني لحالي بعصب شوي وبعدين بنسى!

وفعلاً تركتني وخرجت . . تشب النار في قلبي ، أُشرّق وأُغرّب . . ولا تنطفئ ناري إلا باتصالك بعد ربع ساعة . .

- بهية رضيتي عني؟

صرت أضحك . .

- خلص بعدين . .

سألتني بنبرة كلها حيوية :

- أريد رقم الشقة التي نستأجرها في عمان ، أفكر في الحجز يوم الخميس القادم حتى نرفه عن الأولاد ، يوم وليلة فقط . طبعًا هذا الاتصال أنساني أمر الوصية تمامًا! وبدأت أنسج ضفائر أحلامي .

عدت إلى البيت ، ذهبنا بسرعة للغداء عند عمي بمناسبة كتب كتاب ابنته . قالت لك مريم قبل أن تخرج :

- بابا رجّع الأسّرة مثل ما كانوا ، ما حبيتهم قراب على بعض!

أخذت ترقص وأنت تحكي مع مريم ، تقفز حتى تجعلها تضحك ، تدلعها يا مريومتي . . عندما وصلنا لبيت عمي انفصلنا . . كلٌّ إلى مكانه ، وعندما خرجنا قلت لي :

- إلى أين؟

- إلى المول . نحتاج شراء بعض الحاجيات .

كنت أشعر بتقصيري تجاهك لكثرة المناسبات ، زواج أختي وابنة عمي بعدها ، فأردت أن أشتري كل ما تحبه لأصنعه لك ،

ووضعتِ جدولاً بالأكلات التي تحبها حتى أصنعها لك في الأسبوع القادم، أردت أن نعود إلى عشنا الدافئ، فلم أعد أحتمل التشتت الذي أصابنا من كثرة المناسبات، قلبي كان يخفق لنعيد عهد الحب.

ونحن بالمول اتصلتَ بابن عمي الذي يعمل معك وأخبرته بأنك ذاهب لبيت لحم وقلت له: إنك تريد الهرب من (أناس معينين) طبعًا نفذ ابن عمي المطلوب، وكان أولئك الناس هم (أنا) أذكر أنني التقيت بابن عمي بعد ذلك، وكم شعرنا بالغباء، فقد نجحت في التمويه وتغلبت عليّ وعليه!

يا ضماد الطيبين

يا طهر الزيتون ، نعم يا صاحب الدم الذي لم يجثو!

ها أنا أكتب إليك من جديد ، كم يبدو ذلك اليوم بعيداً جدًا ، لكنه بالنسبة لي كأنه يحدث في هذه اللحظة .

أيها الصامت أثقلت جراحي .

لمَ لم تدربني على تذوق الفجيعة؟ أم أن الفجيعة تأتي هكذا فجأة ، دفعة واحدة وبلا مقدمات .

قد نسير بمحاذاتها ، لكن السير بمحاذاتها شيء والوقوع فيها شيء آخر!

هذه هي المرة الأولى التي أفكر فيها بالكتابة عن ذلك اليوم .

السجن يا ماهر لم يمنعنا أن نعيش معًا! كل منا في روح الآخر ، وأنا أكتب أعيش معك حياة أخرى ، أن أكتب لك يعني أن أعيش معك مرة أخرى .

الآن أتخيلك وأنت تستنشق كلماتي وتركض وراء حروفي ، تتوهج ولا تنطفئ .

في ذلك اليوم لم أتخيل نفسي قاسية لتلك الدرجة ، لم

أكن أتخيل أن أصرخ وأقول بأعلى صوتي :

- يا رب يكون استشهد .

ها أنا أكتب عن تلك اللحظة وبكل شجاعة ، وعندما أكتب أتوغل إلى داخلي أكثر وأكثر ، أحاول أن أفهم ما حدث . فعندما ينتهي الحدث وتزال الغشاوة تصبح القدرة على الرؤية أكثر وضوحًا .

ها أنا أعيد قراءة الحدث ، ما الذي حدث يا ماهر؟ ولماذا يا مهجة الروح؟

نعم تمنيتُ لك الشهادة ؛ لأنني كنت أعرفك أكثر من نفسي . . أعرف كم تكره السجن وتخشى أن تعود إليه . .

في ذلك اليوم كنتُ كحبات الرمل الشاسعة ، مشتتة ، وضائعة ، لا يجمعني إلا كفك! كلما حاول أحدهم الإمساك بي وتهدئة روعي أتسرب من بين يديه بهدوء وبلا صوت .

رجعتُ من المول لوحدي بعدما ودعتني . . حتى تذهب لبيت لحم على حد قولك! كنت تقفز من الفرح وتقول :

- ما رح أطوّل!

خدي إلي نفسك فيه ، اشتري ما تشتهين ، ثم ابتعدت في الممرات ، ولكن ما لبثت أن عدت وأرسلت لي قبلة في الهواء .

ثم سألتني :

هل أذهب إلى البيت وأبدل حذائي وألبس بوط رياضة؟

قلت لك :

- لا داعي .

خرجت من المول . . ثم عدت واتصلت بي . .

وقبل أن تغلق السماعة قلت بصوت مثقل بالدموع :

- اشتري لمريومة جاكيت لأن الجو سيتغير . لم أكن أعرف أن الفارق بين هذه المكالمة والعملية هو عشر دقائق فقط!

دخلنا المنزل أنا والأولاد ، وضعت كل ما اشتريت في مكانه ، بدأ عبادة يحل واجباته ، جلست على التلفاز ، جاء الهاتف الأول من عمي يخبرني أن شرطة عتصيون تريد والد ماهر!

- صرخت :

لماذا شرطة عتصيون؟

- يبدو أنه حادث سير .

حتى هذه اللحظة بقيت فكرة الموت بعيدة عني وعنك تمامًا . كنت أعتقد أن الموت لا ينبت في بستاننا!

مع أننا كنا نتكلم كثيرًا عن ماذا سيفعل كل منا بعد الآخر؟ لكنني لم أرَ ذلك في عيونك ولا مرّة واحدة .

اتصلتُ بأمك ، قلتُ لها أن تخبر والدك أن الشرطة تريده . شعرتُ بخوفها وقلقها لكنني بهدوئي أشعرتها بأن الأمر تافه جدًا .

بدأت الاتصالات تنهال عليّ من كل حدب وصوب ، الناس تسأل أين ماهر ومع كل سؤال كان دمي يتصفّى ، في

هذه اللحظة ركضتُ إلى غرفتنا أريد أن أسألك ماذا أجيب الناس؟ كيف أتصرف؟ في هذه اللحظة أحسستُ باليُتم لأول مرّة!

ذهبت فعلاً إلى غرفتنا . . أصلي المغرب ، عدت واتصلتُ بطارق ابن عمي الذي أخذك من المول ، صرختُ في وجهه بقسوة :

– لا تكذب ، قل الحقيقة . . أين ذهبت بماهر؟

– والله أوصلته إلى المنزل .

هنا زاد شكي ، ذهبتُ إلى الخزانة لأرى إن كنت قد استبدلت حذاءك ، نعم لقد غيّرت الحذاء ولبست حذاءً رياضيًا ، ربما لتسهيل المهمة والتحرك .

كانت أمك تتصل كل خمس دقائق وأنا أحاول أن أتظاهر بمظهر الهادئة اللامبالية الرزينة حتى لا تنهار ويتجمد الدم في عروقها كما يحدث معي في هذه اللحظة!

اتصلتُ بأهلي قلت لهم :

– تعالوا بسرعة ، أمي تقول لا تقلقي . . شو رح يصير؟!

غضبت من برودها وصرخت على الهاتف :

– أريدكم عندي فورًا! وأقفلت الهاتف وركضت صوب الكمبيوتر ، فتحت الانترنت لأرى حقيقة ما يجري .

فتحت الإنترنت ، رأيتك!

وانقطعت أوتار القلب وجفت آخر قطرة في دمي ،

تأملتك . . تأملت معطفك ، بنطالك ، حذاءك الرياضي ، لم يظهر وجهك ، كنتَ ملقى على الأرض ،العقبان تنهشك من كل حدب وصوب . لكنني أعرفك وأعرف أدق تفاصيلك .

أيها الصامت الصادق . .

في هذه اللحظات تفيض الدمعات وهي نار ، لا يرمش لي جفن ، أحدق في الضوء الذي التمع فجأة! أجلس كما أجلس بين السجدتين ، أشعر بأنني خفيفة ، تطير روحي مني وأحاول أن ألحق بها فتستعصي وتسخر مني .

أمسك بوسادتك ، أشم رائحتك ، أضرب الوسادة وأصرخ :

- لماذا فعلت هذا يا ماهر؟

لماذا تركتني ومضيت؟ تركتني كأرض عجفاء!

ما الذي فتنك عني؟ أي غواية تلك التي أنستك بهية؟

ماهر . . يا فردوسي . . ويا رصاصتي التي ارتدت إلى قلبي .

اتصلت أمك مرة أخرى ، أجبتها بنفس الطريقة . . صرختْ وقالت إنك قمتَ بعملية دهس وطعن مزدوجة .

امتلأ البيت بثوانٍ . . حشود وراء حشود تدخل البيت ، وأنا أتأملك في الكمبيوتر وأردد بمرارة :

- الله يسامحك يا ماهر . لو قلت لي!

ركض عبادة صوبي وقال بفرح :

-ماما غلطانين ، صدقيني بابا ما استشهد ، بعد دقائق

دخلت خالتي وقالت إن الأخبار العبرية نفت خبر استشهادك .

اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أصرخ :

- يا رب يكون استشهدا ماهر لا يحتمل السجن ، هو طير حر لا يحتمل الأقفاص .

في تلك اللحظة لم أفكر بنفسي ولا بأطفالنا ، توقفت حينها عن البكاء ، وكأن دمعي قد غار وجفّ!

***

الانتظار . . أنتظر الأخبار . . ما أغلى ثمن الانتظار ، إنه يتغدى على الجراح والأوجاع ، أن تنتظر . . يعني أن تفيض الأفئدة بالاحتمالات الجنائزية .

الحشود تدخل البيت ، الكل يتحدث عن لحظة تلقيه الخبر ، عن دهشته لحظة سماعه نبأ استشهادك ، أغلق أُذنيَّ ، لا أحتمل ، كل صوت يوقظ فيَّ ألف صمت وألف خريف ، وألف صرير للأبواب ، كل واحدة تصف مشاعرها وحزنها وكيف تلقفت الخبر وأن لها السبق في ذلك ، ذهبت لأبي وقلت له :

- اطلب منهن المغادرة فورًا!

انهارت أمي وفقدت الوعي ، أمسكتُ رأسها وقلت لها :

- لا يا إمي . . مش إنت وماهر في يوم واحد ، الله يخلّيكِ إصحي .

يصرخ أخي :

- الجيش قادم ، سيكون هنا خلال دقائق ، بسرعة أخرجي أوراقك المهمة ، الذهب ، المال ، اللابتوب .

دخل جيش الاحتلال . . أخرج كل من في المنزل ، أطفالي أيضًا . قالت أختك :

- الله لا يجبركم ، هدول أطفال صغار اتركوهم مع أمهم ، رعبتوهم .

لكنني لم أتذلّل لهم ، لم أرجوهم أن يتركوا أطفالي . . قلت لأختك :

-خذيهم . لن يحصل لي ولهم أي شيء!

وضعوني بغرفة لوحدي ، ووالدي وحده ، وبدأوا الاستجواب ، في هذه اللحظة تخليت عن لومك .

لم أرتعش ، لم أبكِ ، شعرت أني أحمل فوق كتفي كل أمجادك وبطولاتك .

يا فارسي . .

لقد عشقتك في هذه اللحظة أكثر ، عرفت لماذا لم تخبرني عن أي شيء من تفاصيل عمليتك! الآن أدركت من خلال أسئلة ضابط الاحتلال . كلما سألني قلت له :

- لا أعرف .

يشتعل كبارودة ملأى بالرصاص . . يضرب بيده الطاولة . .

يا عاشقي . .

أقسم أنك أنبل الفرسان . لم نتعود أن نخفي شئ عن بعضنا ، لكنني الآن تيقنت من حبك ، اخترت أن تمشي على الألغام وحدك وتجنبني كل ذلك .

أغلقت فمك عن البوح لي ؛ لأن قلبك ممتلئ بي . .

إذا ذهب المحقق ليستجوب والدي . . أغمض عيني وأراك أمامي ، نسجد معًا سجدة الشكر ، ستكون عيني وطنك الثاني الذي يليق بك . يعود الضابط ، يصرخ الضابط ويقول :

- اجلسي منيح .

أضحك فيزداد اشتعالاً .

- يقول الضابط بحنق

- نريد الأغراض التي أخرجتها قبل قليل .

- هناك ثلاثة أكياس ولا بتوب!

أصفن!

وأتساءل بصمت :

العملاء مرة أخرى . كيف لهم أن يفعلوا ذلك؟ وبهذه السرعة! لم تمض دقائق على إخراجنا الأكياس .

العميل هو أول الضحايا ، فهو يحرق نفسه ، يخونها قبل أن يخون الوطن .

لم أعترف أنني أخرجت ثلاثة أكياس ولابتوب .

تدخل أبي حينها وقال لي :

- لن يذهبوا من هنا إلا إذا أعطيناهم كل شيء .

قلت :

- هاتفي ، اللابتوب ، ألبومات الصور ، لا . . لن أعطيهم شيئًا .

أو يعطونني ورقة إثبات أنهم سيعيدونهم لي .

قال الضابط ببرود يخفي وراءه جمار الغضب :

- لم نقم لحد الآن بتحطيم أي شئ في المنزل ، إن لم تأت بالأكياس سنقوم بتحطيم كل شيء .

- لن ندع شيئًا مكانه وأنت تعرفين ماذا أعني . جاء أخي ، أعطاهم كل شيء ، اللابتوب ، الهاتف ، كمبيوتر الأولاد ، ألبوم ماهر في سجنه الأول ، بعض السيديهات وأخذوا أخي معهم . وهو خارج معهم نظر إلي نظرة انطفاء .

قلت له :

آسفة

- لم يرد علي وما بين صمته وجرحي حكاية ابتدأت!

- بعدها بدقائق معدودة . . جاءتني وصيتك بين يدي!

إلى الآن لا أعرف مع من كانت وكيف وصلتني! طبعًا لم أفتحها بناء على طلبك والوعد الذي قطعته على نفسي ولأنك لم تستشهد .

المحكمة

تنوح الروح وتذبل ؛ إذا لم تأنس بالله . . إذا شكّت في معية الله! وتغدو كأعجاز نخل خاوية إذا لم تمسها ماء السماء .

أسير مع أبي لمخفر المسكوبية بعد أن اتصلوا بأبي وطلبوا حضورنا على وجه السرعة ، في الطريق يقترب صوت الشيطان من أذنيَّ ، يلقي فيهما ما يزيدني تخبطاً وعتمة . يأخذني الصوت ويبتلعني ويرديني في قاع عميق لا قرار له . .

أتساءل :

ما السر في أن صوت الشيطان عالٍ ومغرٍ؟ ولماذا يغدو صوته طليقًا وحرًا يعبث فينا كيفما يشاء . ما الذي يحدث يا رب . . ولماذا يحدث؟

بعض الأفكار تصلبنا على خشبة كخشبة الصلب! وبعضها كنسيم بارد ينعش الروح . الآن أطرد كل ماعلق من بقايا صوت الشيطان وأقف على عتبة . . ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

أضعف أحيانًا كعود يابس فأغدو مهيأة للاحتراق وأحيانًا أغدو قوية وشفافة كصلوات نبي . . كلنا ضعفاء يا ماهر . . لكن هناك ضعيف شفاهه ملتهبة بالدعوات وضعيف ضيّع العتبات . .

في الطريق إلى المخفر أودع السماء والجبال، أتأمل الأحجار والأشجار والأطفال، أحدق مليًا في القبة الصفراء.. أسمع الأذان وأردد خلفه وكأنني أسمعه لأول مرة، كل شيء يبدو مختلفًا في لحظة الوداع.

لذلك لا أراهن كثيرًا على أوقات اللقاء، لا أراهن على استقامة الطريق وجماله، رهاني دومًا على النهايات وكيف سنكون عند اعوجاج الطريق والتوائه؟

أردد في سري ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

نسير وعلى يميني تبذو المستوطنات مضطجعة فوق الجبل بكل ثقة وهدوء.. تتمدد مسترخية غير عابئة بأهل البلاد التي شردوا أهلها وقتلوهم وهدموا بيوتهم في أكبر عملية احتيال وسرقة يشهدها التاريخ..

أتأمل المستوطنات، الأشجار الكثيفة، العصافير المغردة، نباح الكلاب الذي لا يهدأ.. بيوتهم الأنيقة المترفة المتوجة بالقرميد الأحمر، كيف يقسم الاحتلال البلد إلى قسمين.. يهدم بيوتًا هنا.. ليعمر بيوتًا هناك.. يقلع شجرًا هنا ويزرع شجرًا هناك.. ما هذا التشوه والتناقض؟ كيف نجحوا في تحويل الجلاد إلى ضحية؟

كيف صوروا السكين أنها يد نازفة؟ وحولوا اليد النازفة إلى سكين؟

المستوطنات تشبه الرقع الملوثة الدخيلة على الثوب الأخضر

الزاهي . . ولابد أن يأتي يوم ونطهر الثوب . .

أسرح بخيالي . . أراك تنتقل من هنا لهناك فتطاردهم . . أرى ذلك الجدار المهدم بفعل اصطدام سيارتك به ، أتخيل تلك الحلبة . . حلبة الصراع غير المتكافئ . .

قلبي يرتجف ، حلقي يجف ، أتخيلهم يدوسون على يدك المصابة ، يفتتون العظم ويهرسون اللحم ببساطيرهم . . يصرخون بك وقد ثقبوا جسمك بعشر رصاصات . . تنزف وتصرخ في وجههم :

- القدس إلنا . . القدس إلنا . .

هذه كانت آخر كلماتك قبل أن تدخل في الغيبوبة التي استمرت لثمانية أيام ثم بُعث من جديد . .

أسمع وقع أنفاسك . . تكاد تقول لي إنها أجمل دقيقة في عمرك . . وقد تصبح الدقيقة عمرًا بأكمله . . وقد يصبح العمر كهشيم المحتضر إلا دقيقة!

ها هم يلتفون حولك كالعقبان . . مدججون بالسلاح والرعب يلفهم . . يصيحون :

- من أنت؟ من أنت؟

وأنت تجيبهم بما يقهرهم ويذكرهم بأنهم ليسوا أهل هذه البلاد . . تختار نهايتك الأكثر إيلامًا لهم والأكثر نقاءً لك :

القدس إلنا . . القدس إلنا . .

نادونا للدخول . .

غرف تفتيش كثيرة . . آخرها ينتهي مع مجندة . .

جردوني من كل ملابسي حتى حذائي فتشوه بدقة . . إنه الرعب الساكن في روعهم . . فالسارق يخشى كل شيء! يخافون امرأة لا حول لها ولاقوة .

كان ينتظرني في غرفة التحقيق ضابط مخابرات طويل وضخم يدعى (أبو نذير) .

سألني عدة أسئلة ثم خرج من غرفة التحقيق . . الغرفة متر بمتر مع شباك صغير ومغلق ، خارطة كبيرة لأحد المواقع موضوعة على طرف الطاولة وجهاز كمبيوتر مغلق .

قال لي بعد انتهاء التحقيق :

- سنعيد كل ما قلناه ولكن . . سؤال . . سؤال لأنني أريد تدوينه على الجهاز . . وفتح الكمبيوتر .

وبدأ يعيد عليّ الأسئلة وبعد إجابة كل سؤال يخرج من الغرفة ويعود بعد ربع ساعة ليسأل السؤال الذي يليه . . كان أحيانًا يسرد الأحداث التي قلتها سابقًا بشكل مقلوب أو خاطئ لكي يرى مدى صدقي وكيف سأصحح له ، وفي أحيان كثيرة كان يشككني بما قلت! وأحيانًا يهزأ بي وينتقد كلامي .

قال بصوت مليء بالسخرية والازدراء :

- لماذا كتب ماهر وصيته مع أنه مازال شابًا؟ ألا يبدو ذلك غريبًا؟

رددت عليه بجفاء :

- وأنت أيضًا شاب! لكنك قد تخرج الآن من التحقيق معي فتدهسك سيارة وتموت فورًا ولذلك كنت أنا وزوجي دومًا نكتب وصايانا .

التهب منتفضًا وأنا أرد عليه بهذه الإجابة . . ثم أكمل وهو يعقد ذراعيه مشككًا - عرفت من أخيك وأخي زوجك أنكم مرتبطون ببعضكم كثيرًا! وماهر لا يخبئ عنك شيئًا قط مهما كان صغيرًا وتافهًا . . فهل يعقل أن لا يقول لك أنه ينوي تنفيذ عملية؟!

ضحكت ساخرة وقلت :

- لم يقل لي شيئًا حتى يحميني منكم .

***

بعد عدة زيارات قلتَ لي :

- أنتِ ذكية جدًا ، وقد عانيت كثيرًا حتى لا تشعري بأي شيء أو تلاحظي ما يدعوك للريبة والشك . . خبأتُ عنك حتى لا يعذبوكِ .

هم سيعرفون من ملامحك ومن طريقة كلامك . . سوف يتوصلون أنك لا تعرفين شيئًا ثم يتركونك في حال سبيلك . . وفعلاً هكذا كان . .

انتهى التحقيق وعدت ألقي على المآذن والقباب والكنائس عباءة الفرح . . عدت أركض في زقاق سيدة الحروف والأحلام والمدائن . . أستنشق شوق الأرض لأحبتها ، أتلذذ بسماع

ترانيم العودة . . عدتُ إلى أطفالي وأنا أتهيأ للمحاكمة القادمة التي ستُجرى لك . .

***

استغربتُ من نفسي وأنا أجهزها للذهاب إلى المحاكمة ، فرق كبير بين أول محكمة وهذه المرة . . في المرة الأولى لمحاكمتك بكيتُ فيها من القدس إلى رام الله دون انقطاع . . وهذه هي المحاكمة الأخيرة . .

صباحي هذا أزرعه تسبيحًا وتهليلاً . . أردد بروحي قبل شفتي لأن الله يسمع روحي قبل أن تنطق شفتاي . . أتخيل القادم الأجمل . . رغم الظمأ الذي يلوح في الأفق ورغم الجمر والصمت . .

أخذت أتلو منذ الصباح ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾

لم تكن ترغب في حضوري لجلسات المحاكمة لأننا بالنهاية نحن في محاكمهم! وهم يتصرفون بعدوانية ويحاولون أن يمرغوا نسرينة الأنثى الفلسطينية في الوحل . قد يقتربون منا هكذا على حين غرة! يصورروننا وكأنه لا خصوصية لنا ، يلتفون حولنا كميكروبات ، يقدحون شررًا وحقدًا ، يسبون ، يشتمون . . لكن كان إصراري كبيرًا على الحضور وأقنعتك بذلك رغم كل شيء!

يومها قال لي المحامي :

- أوافق على حضورك المحاكمة ولكن بشرط :

- لا أريد أن أرى أي دمعة ، أريدك أن تشهري في وجههم أقوى سلاح . . أشهري ابتسامتك الكبيرة ، إذا لم تستطيعي أن تتلقي الطعنة بابتسامة فلا تأتِ .

آخ يا ماهر . .

إما أن تملك ابتسامة تحمل ملامح الصمود ، وإما أن تذوب وتذوب يأسًا فيجرعك عدوك جرعة واحدة . .

إما أن تتوضأ بماء اليقين! وإما أن تتركهم يحرقونك ويقتلعوك! إن أردت الانتصار عليك أولاً أن تفك قيود روحك التي تكبلك . . عليك أن تحضن الشمس حتى تشرق داخلك . .

وجاء النطق بالحكم . . مؤبدان!!

نظرتُ إليك يا ماهر وابتسمت ، ونظرتَ إليّ وابتسمتَ . . أذكر أننا قلنا معًا . . الحمد لله . .

كنتَ تستمع إلى مجريات المحاكمة وتلتفت إليّ وتضحك مع إيماءة بالرأس . . كانت لحظات لا تنسى من القوة التي وهبنا الله إياها . .

أربعة ملايين شيكل . .!! ابتسمنا أكثر وأكثر . . ابتسامة الواثق بنصر الله . .

وبالفعل كان لابتسامتنا أنا وأنت وقع مزلزل في وسط

المحكمة . . لقد ظنوا أننا لم نسمع الحكم فأعادوه مرة أخرى . .

في المحكمة هم من صوروا هذه الابتسامة!! لأنهم يمنعون الصحافة الفلسطينية من دخول محاكمهم!

كنتُ أعتقد أنك ستحكم بمؤبد واحد! ولكن مع سماعي الحكم (مؤبدين) وأربعة ملايين شيكل . . اشتعل فتيل الابتسامة أكثر وأكثر وأيقنت أنَّ اشتداد العتمة هي ولاية من الله ليمنحنا النور العظيم . .

هذه الابتسامة كانت طعنة لهؤلاء الجنود . . هذه الابتسامة قالت لهم . . إنكم راحلون! وهل ستبقون في هذه الأرض ٢٠٠ سنة أخرى؟! بهذه الابتسامة روّعناهم . . تلك الابتسامة كانت مثل صفير الرصاص ؛ جعلتهم يتبعثرون كأنهم فراش مبثوث!

على باب المحكمة أرسلتَ لي قبلة في الهواء تخطت الحواجز والأحكام الجائرة .

خرجت من المحكمة وأنا أشعر بهدوء وسكينة يملآن قلبي . . سألني شاب في الخارج . .

- كيف أسيركم . .؟

- انحكم مؤبدين وأربعة ملايين شيكل!

وكلتُ أمرك يا ماهر لربي . . فألقي في روعي الرضا ، فكان الحكم على قسوته شفافًا كغيمة وحنونًا كقطرة مطراشعرت بربي يسندني ، يواري ضعفي وهذا الحكم هو أول الطرقات على باب الفرج!

أحسستُ بشمس يوشع تتوقف ساعة حتى تحسم النصر لنا! هذه الشمس تربت على كتفي وكتفك وترسم تكبيرات النصر مادام القلب خالٍ من الندوب!

القدس أول السطر!

لا تلوميني يا بهية!

أعرف أن قلبك أصبح ملتهبًا كقطعة جمرا يتردد صوتك في رأسي . . أسمعه كقصيدة كتبتها بقلمي ، إيقاعها كان صوتك . . أسمعك تتساءلين :

- لماذا فعلتها يا ماهر؟
- ما الذي فتنك عني؟
- أي غواية تلك التي أنستك بهية؟

إنها القدس يا بهية . . القدس وردة الذاكرة وتسبيح الحمائم!

القدس أول السطر وأول النزف . . هي كف المسيح تفيض بالنور . . هي ترتيل محمد يجمع شتات القلوب .

القدس إلنا . . القدس إلنا! هذه الكلمة التي كنت أصرخ بها في آخر عهدي بالدنيا وروحي معلقة بين السماء والأرض! هذه الكلمة أصدق ما نطقت!

لا تلوميني يا بهية أن خبأت عنك مخططاتي للعملية ، أعرف أنك ذكية جدًا وستلاحظين تحركاتي وحتى همساتي ؛

لذلك اخترت توقيتًا تكونين فيه في قمة انشغالاتك (عرس أختك) فأنت أقرب إليّ من روحي لذلك لم أبُح لكِ!!

سيعرفون أنك لا تعلمين شيئًا عن العملية بمجرد أن يباشروا التحقيق معك وسيتركونك . .

هذه رسالتي الأولى لك من السجن . . أعرف أنها قد تستغرق شهورًا طويلة لتصل!

وكما تتبع زهرة عباد الشمس ضوء الشمس سأتتبع في رسائلي إليك مواطن النور والضياء في السجن ،لم أعتد الإفصاح عن مشاعري لك . . لكنني هنا سأتعلم البوح لك بكل ما يجيش في صدري . .

أيامنا في السجن متشابهة راكدة لذلك لن أكتب لك إلا إذا حدث شيء يخفق له القلب فرحًا . . أريدك أن تشاركيني ساعات الفرح يا بهية . .

لكنني في هذه الرسالة سأحكي عن ماقبل السجن . .

تستيقظ بعض الحكايا تستيقظ . . تضيء كلهب شمعة في آخر عهدها بالنور ثم تنطفئ فجأة على حدود النزف!

في ذلك اليوم كانت أقدامي ترتعش كارتعاش حجارة الأقصى تحت قدمي ، فالأنفاق والحفريات . . حفرت روح الحجر وشكله . . جعلته مرتعشًا بين الخوف والرجاء . . أذكر يومها أني أتيتكِ مثقلاً بالدمع من غير دمع!

تساءلت يومها :

- كيف يتحول الدمع اللاهب إلى مجرد قطرات من الماء؟

وكيف يذوب الملح في الفم ونستسيغه ونستسيغ الخيانة؟

كان يومًا ماطرًا جدًا، باردًا كبعض الملامح التي تعرف الحقيقة وطريقها، لكنها لا تسلكها!

جنود الاحتلال ينظرون إلى المصلين بريبة، يسلطون أسلحتهم ورشاشتهم، تختلط حبات المطر بتكبيرات المرابطات حين تمر مجموعة من المستوطنين اليهود ترافقهم قوة من الشرطة، تهتف النسوة بأعلى أصواتهن.. الله أكبر، تلتقط السماء التكبير وتمدّ حبلاً من نجاة وتهتز الأرض طربًا..

للتكبير يا بهية وقع غريب على النفس.. يعبرنا فيشعل الجمر البارد فينا!

وفجأة تتسع الحدقات ويعلو التكبير أكثر وأكثر، أفواج جديدة من المستوطنين اليهود يدخلون المسجد، وبكل وقاحة يخلعون ملابسهم أثناء جولات الاقتحامات، أسمع صراخ المرابطات وقد انهال الجنود عليهن بالضرب. عندها وفي هذه اللحظة صرخ أبو محمود جاري الذي رافقني اليوم إلى الصلاة..

- هذه مدينة العذاب، ماذا لو مِت الآن برصاصة طائشة، ماذا سيفعل أولادي؟

ينكسر ضوء الشمس وهو يخترق حبات المطر، أشعر حينها بالاختناق، صوته ملئ بالهشاشة، يعلو صوته أكثر مع

رشقات التكبير والغاز المسيل للدموع . . يتمتم :

- ما المانع أن نعيش مع بعض بسلام وأمان؟ لماذا لا نفعل ما يريدون ونقسم المسجد بيننا وبينهم؟

قلت له :

- كل ما تحتاجه لتصبح مسخًا أن تنظر إلى ما يحدث بعينين من طين! كل ما تراه أمامك من ضرب وسحل للمرابطات واقتحامات ورصاص ومازلت تنادي بالسلام!

هزيمة الروح المبتلة بالذل والقهر . . أقسى من هزيمة الجسد! الهزيمة تبدأ من الداخل ياجاري ثم تنتقل إلى الخارج! ما نراه الآن بدأ من داخلك . أنت مهزوم يا جاري!

- هي ليست هزيمة . . إسرائيل أمر واقع ونحن لا نقدر عليها ، أنا أعترف بالحقيقة . .

- أنت تعرف الحقيقة . . ولكنك لا تريد أن تسمع أي شيء يدلك عليها . .

- تعِبنا يا أخي . . كل يوم انتحاريين ، عمليات طعن ، دهس ، ألا يمكن أن نعيش كما يعيش العالم نحتسي قهوة الصباح بهدوء دون أن تختلط بالدماء والأشلاء . .

- قل هذا لغليك! قل هذا لجماعة الهيكل ، قل هذا لمن يحمل السلاح ويصوبه صوب رأسك وأنت تصلي . صدقني يا جاري! العالم لا يصدق الضعيف ولا يرحمه . لقد تشوهنا من الداخل ، لقد صرنا نشبه عدونا وننطق بلسانه!

ندعو ليل نهار ألا تسقط المدائن، ومع ذلك تسقط الواحدة تلو الأخرى. السقوط ابتدأ من القدس وها هو يمتد الجرح ويتسع، لماذا؟ لأن السماء لن تمطر طيرًا أبابيل تنقذنا بل يجب على كل واحد فينا أن يكون طيرًا أبابيل.

لماذا علينا أن نعطيهم بيتنا وحقنا ومسجدنا وقدسنا؟ فلسطين كلها لنا من النهر إلى البحر!

- لكننا نموت بلا ثمن!

- إنه الموت المحفوف بالطهر، لا موت يشبه هذا الموت.

- قد يكون لهم حق مثلنا! أليس لهم هيكل تحت المسجد؟!

أخذتُ بيده وجلسنا بعيدًا.. على حجر قريبًا من السور، كنتُ على يقين وأنا أحكي معه.. وكان على يقين أيضًا بأحقية هذه الأرض لنا لكن يقينه الأكبر أنه لا يستطيع أن يقاوم! كان يعي جيدًا بأنها أرضه، لكنه قرر أن يبيعها لينعم بلحظات هدوء مزعوم وما عرف أن الموت سيأتي المساوم كما سيأتي للمقاوم!!

فتحت عيني على وسعهما وقلت بنفاذ صبر:

- من قال لك إن لليهود حقًا في فلسطين؟!

السماء أعلنت كلمتها! الأحقية في هذه الأرض لا تتعلق بالجنس ولا بالعرق ولا بالنسل ولا بسبق الوصول ولا بمدة المكوث.. الإمامة تتعلق بالمنهج!

الإمامة لمن أمّ بالأنبياء ..

الإمامة لمن ربط البراق بالصخرة وعرج ..

الإمامة له ولأمته ..

لا أحد يستطيع إثبات انتساب يهود هذا الزمان لبني إسرائيل الذين عاشوا في فلسطين قبل ألفي عام .. فكل الدراسات العلمية تشير بأن يهود اليوم لا ينتمون لبني إسرائيل القدماء ، العلو اليهودي الذي نراه الآن حالة مؤقتة تحمل عوامل دمارها في ذاتها ؛ لأنها لا تملك مشروعًا حضاريًا يخرج البشرية من تيهها ؛ ولأنها قائمة على الظلم والغصب .

أما حقهم في الأقصى .. فبعد سنوات طويلة من التنقيب والحفريات لم يعثروا على أي أثر للهيكل المزعوم . هم قالوا ذلك وليس أنا!

لقد قرأت في صحيفة هآرتس في ٢٩/اكتوبر /١٩٩٩ مقالة كتبها عالم الآثار اليهودي (هوتسوج) يقول فيها :

هناك شرخ في رواية التوراة للتاريخ القديم كشفته الأبحاث والحفريات الأثرية ومايحصل لنا في اسرائيل هو أننا لا نريد علماً مستقلاً! نريد للآثار أن تثبت الرواية التاريخية التوراتية وهذا معاكس للعلم وللحقيقة التاريخية أيضاً!

وعلى هذا المنوال ارتحل بي المقال إلى حقائق لم أكن أنتبه لها .. لكنها نبهتني إلى شئ يجب أن أعرفه وأدركه والحقيقة جاءت على لسانهم!

وفي نهاية المقال يُصرّح عالم الآثار بأن التنقيبات الأثرية في أرض إسرائيل أوصلته إلى نتائج محبطة ، فلم يعثر على شيء يتفق مع الرواية التوارتية!

والأعجب من ذلك كله ماقاله العالم اليهودي الشهير (فنكلشتاين) فقد قال :

إن التوراة وثيقة متأخرة جدًا كتبت في القرن السابع وفق أبكر التقديرات من خلال منظور لاهوتي وايديولوجي وسياسي . .

هزّ رأسه بسخرية غير مصدق ما أقول وقد تعكر مزاجه وتابع :

- طيب لماذا كل هذه الحفريات التي لم تنته؟

- لأن النظريات الصهيونية يختلف هدفها عن هؤلاء العلماء الذين يبحثون عن الحقيقة العلمية ولذلك اصطدم هؤلاء العلماء مع السياسات الصهيونية الساعية إلى تهويد كل أثر!

أنت يا جاري لا تعرف شيئًا عن القدس . . أعرف تاريخك . . اعرف مدينتك أولاً ثم تحدث .

أتعرف ماذا ينقصنا؟ ينقصنا الوعي والفهم أكثر مما تنقصنا القوة ، هذه المدينة المعذبة . . معذبة بك وبأمثالك ، ترتجف ليس من وقع بساطير اليهود وأصوات رصاصهم ، بل ترتجف ، لأنها عندما مدّت يدها لكي يسحبها أبناؤها من البئر تفاجأت

بأنهم يشحذون السكين لذبحها . . وأنت منهم!

لكن جاري بقي يراوغ وقال :

وحتى لو كان كلامك صحيحًا ، وحتى لو كانوا لا يملكون حقًا في الأرض كما تقول . . لماذا لا نصل إلى تسوية ونقتسم الأرض ونعيش مثل الخلق؟

- تريد حلّ الدولتين يا جاري . . تريد أوسلو؟

- السلام هو تفاحة لامعة وناعمة وبراقة ، لكنها مسمومة ، كما أخرجت آدم من الجنة ستخرجنا من أرضنا ، ستباغتنا بسُمِّها ، ستنخر فينا ببطء وتتركنا فتاتًا! سنكون حراسًا لإسرائيل ، سنكون الشرطي الأمين للكيان الغاصب . . نتبادل وإياهم المعلومات الاستخبارتية ، نشي بالمقاومين ، نحقق معهم ، نستل منهم المعلومات بالتعذيب ثم نسلمهم لإسرائيل ، ثم نخنق كل محاولة لتفتح الورد في المدن العطشى وهذا ما يحدث الآن!

يؤلمني أن تتحول الخريطة إلى خرائط ، والخرائط إلى شظايا صغيرة مشوهه متناثرة ، شظايا تجرح وتتناثر في الروح فينسكب الوحل بدلاً من الدم .

***

قلتُ لكِ يومها بحرقة :

لماذا الردة؟! وهديل الحمائم يسبح فوق القبة الصفراء؟

لماذا ترتد السهام إلى قلوبنا مع أننا نملك الأقواس والأوتار

ونتقن الرمي ونحمل عناقيد الحب والغضب؟!

قلتِ لي يومها :

لا يكفر بوطنه إلا من قبض الثمن!! جارنا وأمثاله منتفعون يعرفون الحقيقة ، لكن الثمن الذي يقبضونه أعلى صوتًا من الحقيقة . .

ولبعض الحب مذاق مر!

ماهر..

أنت المبتدا والمنتهى..

سمعت أكثر من واحدة تقول لي عن ذلك الأسير الذي قال لزوجته :

- أنت حرة! اذهبي في حال سبيلك ؛ لأنه محكوم بالمؤبد . .

عبارة هذه المرأة وكثير من النساء نبشت الشك في قلبي ، وكانت الأحداث تتوالى وتؤكد هذا الشك ، كنت أخاف أن أسمع هذه الكلمة ، أرى هذه الكلمة وأتلمسها في كل زيارة وأصمت وأدخل في متاهة . .

أرى عود الثقاب قد شارف على الانتهاء فأضع عصابة على عيني حتى أقنع نفسي أن ما أراه ليس حقيقة ، وأنه وهم في رأسي فقط . .

ما أصعب أن يتحول الودّ الكبير إلى وجع كبيرا أم أننا مولعون بتحويل أفراحنا إلى أحزان؟ لا أدري!

أم أن عمر الحب دومًا قصير؟ لا أدري!

لماذا تضيق ضفافنا عن الحب يا ماهر؟ لماذا تجعلني أقف على الأعراف أنتظر حكمك؟

وتتوالى الأحداث . .

إذا أردتَ الاتصال تتصل على رقم أهلك!

وإذا أردت إرسال رسالة عن طريق الصليب الأحمر ترسلها لأهلك، والعبارات تكون جماعية لا تخصني ولو بكلمة واحدة . . أبكي بحرقة وأقول أين أنا بعد كل هذا؟

بعد كل رسالة إلى أهلك . . أقف على حافة قاسية وملوثة بالخوف والرعب القادم!

وفي كل يوم تزداد الأمواج تلاطمًا في صدري والشك لم يبلغ النصاب بعد .

ذهبنا لأول محكمة لك . . نظرتَ إلي نظرة قشة بعثرتها الريح . . كانت عيناك غائرتين في محجريهما مكللة بالسواد وزائغة، جسدك نحيل جدًا، فقد خسرت خمسة عشر كيلو، يدك المهمشة ملقاة جانبًا كأنها ليست يدك ولا تعنيك وقد غطاها الجبصين، الأصفاد تملأ يديك وقدميك . . مع أنك على كرسي متحرك! نظرتُ إليك ونظرتَ إليّ وبكينا، لم ننطق ببنت شفة!

لم تقل ولا حتى كلمة تشفي جروحي وتبدد شكي . . لم تقل ولا كلمة تشفّ عما في صدرك فأرتاح .

نظرتُ إليك مجددًا في غفلة من الضباط والمحققين . .

أشرتُ على بطني وقلت بشفاهي وبدون صوت :

- سـألد منك ذلك الطفل الذي كنا نخطط له بعـد رحلة العمرة التي لم نذهب إليها . .

هززتَ برأسك بتثاقل . . واشتعلت الدموع في أهدابك مرة أخرى . .

عدت وأشرتُ لك بشفاهي وقلت :

-هل أنت راض عني؟ فهززتَ رأسك مرة أخرى .

كان الأمر مطمئنًا للحظة في المحكمة . .

لكن الشك عاد يثرثر في رأسي ويصل إلى أعمق نقطة . . عندمـا نظرت لأمك دوني وأوصـيتـهـا بملابس لك . . طبـعًـا بصـوت لا يكـاد يُسـمع . . فـقـد كـنت ضـعـيـفًـا هزيلاً لا تـكاد شفتاك تحتمل الكلام . . أوجعتني يومها وشاخ الأمل في قلبي!

لماذا توصي أمك ومـلابسك وحـاجـيـتك عندي؟ أنا من أحفظها وأعرفها عن ظهر قلب! هل ستقول لي لا تنتظريني؟

- مددتُ رأسي إليك وقلت :

- تريد ملابس؟

أنا سأحضرها لك . .

أطرقتَ عـينك وعـادت الدمـوع لتـغلق كل الأبواب . . أو تفتحها لا أدري .

وخرجتُ من المحكمة أتساءل :

- هل ستنتهي قصتنا هنا؟

وجـرار الحب التي سُكبت في أرواحنا .. هل غـارت في أرض سبخة مالحة؟

هل تفعل ذلك لأنك لا تقوى على الكلام؟ أم لأنك تعلم أن كلامك معي يفتح بوابات العشق فآترث الصمت؟ أم لأنك فعلاً قررت أن تدعني في حال سبيلي؟

حـتى إذا بلغ بي الضـيق عنان السـمـاء .. فـاضت روحي دعاء وودادًا!

وكأسـراب الطيور المهاجـرة التي لا تخطئ قـبلتـها وصلتني رسالتك بعد حين .. طِرتُ بها فرحًا ، وذهبتُ للصليب الأحمر لاستلامها .. كانت هذه الرسالة بعد أربعة شهور من الحريق المشتعل .. أربعة شهور لم أستسلم فيها لثرثرة الشك .

الحب أخضر يا ماهر ، وقد يصبح رماديًا أو أصفر!

يتـفـتح الحب ويزهر بالكلمـات .. هكذا كنت أعـتـقـد ، لكنني في هذه الفترة أيقنتُ أنه قد يزهر بالصمت أيضًا .

أمسكتُ الرسـالة واستـجـمـعت قواي حـتى أستطيع أن أواجه ما فيها ..

رفّ القلب ورقّ .. أطلقته كفراشة صوب زهور كلماتك ، وإذ بالرسـالة تبـدأ بأبي وأمي .. تشكرهم على حـضـورهم المتـواصل للمـحكمـة ، مرة أخـرى أغـمض عـيني ، خـفت أن أكمل فأقعِ في حفرة لا أستطيع الخروج منها ، أغلقت الرسالة وذهبتُ للسيارة ، جلستُ خلف المقود ، فتحتها مرة أخرى ، ياه

ما أحوجني إلى كلماتك ، فتحتها وأنا أرتجف وأتصبب عرقًا ، بدأت أقفز على الكلمات قفزًا وروحي معلقة بكلمة منك ، أتنقل بين الكلمات بسرعة كمن يبحث عن كلمة معينة فوجدت اسمي واسم عبادة ومريم في الفقرتين التاليتين!

بكيت وضحكت ، هذا ما أستطيع قوله بعد قراءة أسمائنا . .

بعض المشاعر لا يحتملها بياض الورق ولا حبر الأقلام . ضحكت وبكيت ومازالت سفينة الشك تتأرجح بي ، لم ترِحني وتستوي على الجودي بعد .

أربعة أشهر هل تنقص من عمر العشق أم تزيده؟

أربعة أشهر وأنا أتنفس الحزن وفي عيني دمع لا يرقأ .

أربعة أشهر وأنا أصنع حبالاً للنجاة بعد أن كاد اليأس يفقدني آثار أقدامي على شاطئك .

ما أصعب أن تظل الروح بين مد وجزر وما أثقل أن تبقى بين صمت الموج وانكساره .

ولم يهدأ بالي إلا بعد أن نقلوك إلى سجن عوفر بعد أن تعافيت وبقيت رصاصة واحدة من رصاصتهم العشر في جسدك!

واتصلت معي . . .

على شباك الحمام وخلفك خمسة شبان ينتظرون مكالمتهم أيضًا بفارغ الصبر . . كنت تسرق الكلمات سرقة . . كنتَ

تحكي معي على أنني ابنتنا مريم لتستطيع أن تقول لي أحبك دون خجل . .

بحبك يا بابا . . بحبك يا بابا . . كنت تصيح بأعلى صوتك وعندما قلتُ لك عن مخاوفي سابقًا وما كنت أشعر به قلتَ :

- أتعلمين لو كان هذا سيحصل فاعلمي أنها نهاية حياتي . . وأخذت تعتذر عن كل نظرة أو همسة أو حركة سببت لي هذا الشعور ولازلتَ تعتذر لي بعد كل زيارة!

حلب

بهية!

على حدود كتفك فقط أسند رأسي ، هكذا فقط أغدو قويًا!

ها أنا أتهيأ للنهوض لصلاة الفجر ، وما أجمل الفجر الذي يحمل صورتك لي . وجهك يحمل ملامح ورد سكن قلبك وقد تلّون بالصبر!

الوقت الذي يمنحونه لنا في الزيارة لا يكفي لأقول لك كل ما يدور في خلدي فماذا عساني أن أقول . .

أعرف أن الكثيرين من أصحاب المؤبدات يخيرون زوجاتهم في البقاء معهم خوفاً من ظلمهنّ! فكرتُ في ذلك كثيراً ولكنني لم أفعل! أتدرين لماذا؟ لأنني لا أحتمل!

هناك الكثير من الكلام لا يعرف طريقه عندما أقف أمامك! لكنني عندما أكتب أقبض على الكلمات وأطلقها كفراشة صوب قلبك . .

الظلام مازال مخيمًا على الزنزانة إلا من حزمة نور . أسمع صوت طقطقة المطر في الخارج فتغمرني سعادة بالغة .

أعرف أن كثيرًا من هذه الرسائل لن يصل! أو قد لا تصل

حسب ترتيبها الزمني! فكثيرًا منها سيصادره ضباط المخابرات وما قد يفلت من أيدي الضباط قد لا يصل للصليب الأحمر. في بعض الأحيان أنقّل ما كتبته شفويًا للمحامي حتى يوصله لك. لا عليك فقد احتطت لهذا الأمر، فأنا أقوم بعمل نسختين من كل رسالة، نسخة أبعثها ونسخة أحتفظ بها.. فالحروف هي ذاكرة الزمن، لابد من الكتابة، لابد من التدوين!

تفحصت شكلي جيدًا في المرآة قبل زيارتك الأخيرة لي.. الشيب بدأ يغزو لحيتي وبدا وجهي شاحبًا وباهتًا.

لكن عندما رأيتك تدفقت الدماء إلى وجهي. قرأتُ في عينيك المحبتين من أكون، شاب يفيض حيوية ورجولة وبهاء، تتلهفين لروحه.

قلتُ لكِ:

- هذه بعض الشعرات البيضاء قد غزت ذقني! لقد كبرت يا بهية!

قلتِ لي:

- أنت كما عهدتك! لم تكبر.. لم تتغير، أما عن الشعرات البيضاء الجديدة في ذقنك فقد زادتك بهاء وجمالاً ووقارًا. لا تقلق فقد بدأ بعضها يغزو شعر رأسي وهكذا نتعادل!

ما زال صوتك عالقًا في أذني، فثمة أصوات تعمّر في الأذن..

طلبتُ منك أن تقرئي لي شيئًا من القرآن بصوتك العذب . . فقرأت ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ طوال الليل وأنا أردد هذه الآية فأشعر أن الأغلال غدت أكاليل من الزهور!

أتذكرين يا بهية ذلك الطفل الحلبي الذي أحببناه . الطفل الذي أدهشتنا لهجته وطريقة كلامه . . كان يسأل والده :

- بابا أديه الساعة؟

- أيدعش!

-بابا فيني آخذ منك ليرة؟ بابا فيك تاخدني على الملاهي؟

لقد كنتِ بارعة في تقليده وتقليد المطة الموجودة في اللهجة الحلبية ، كنتِ كلما قلدتهم أضحك بصوت عال ، أضحك من كل قلبي . وأشعر أنك تملكين الدنيا عندما أضحك ، فتعيدين الكَرَّة مرة تلو الأخرى لأضحك وأضحك .

أزعم يا بهية أنني رأيته على شاشة التلفاز! تلاقت نظراتنا ، كانت عيناه ممتلئتين رعبًا ويأسًا ، كانتا تنظران باتجاه واحد . صوبي فقط! خليط من الغبار والدم يغطي ملامحه ، لكنني عرفته ، عرفتُ آلاف الأطفال والوجوه التي رأيناها يوم زرنا حلب!

رأيت تلك المرأة وزوجها اللذين عندما عرفا أننا من فلسطين أصرّا على أخذ صورة تذكارية معهما . .

أخذا يسألاننا عن أحوالنا في فلسطين بحرقة ومحبة وكأنهما يعرفاننا من سنين! لقد رأيتهم يا بهية . . رأيتهم وقد ابتلعهم البحر .

مخيف منظر المدينة التي أحببناها يا بهية . .

عشقناها لأنها تشبه القدس ، شوارعها ، زقاقها ، بهاء حاراتها ، أسواقها المسقوفة ، أحببناها لأنها المرة الأولى التي نخرج فيها من فلسطين فكانت هي وجهتنا . هذه الزيارة كان لها وقع خاص علينا ؛ لأنها كانت المرة الأولى التي نخرج فيها من فلسطين بعد منعي أمنيًا لمدة خمس سنوات . . (كل أسير محرر يمنع من السفر لمدة خمس سنوات) .

أحببنا حلب ، أحببنا أهلها الطيبين ، أحببنا نخوتهم وشهامتهم . . عندما دخلنا الكوفي شوب لاحظ صاحبه أنك تعانين من مغص وألم . . لحق بنا إلى الشارع وأعطاك حبة رمان ، ناولكِ إياها كأميرة وقال لكِ :

– جربيها . . الرمان منيح للمغص!

كانت بطنك تؤلمك مع تغير الجو قلتِ لي :

– أريد (لبن أب) عيران باللهجة الحلبية ، فقد كنتِ تشعرين بدوار ودوخة ، اشترينا عيران وساندويشات بسيطة ، وجلسنا على حافة سور بجانب قلعة حلب ، وقبالتنا كانت مبان وعمارات سكنية لها شرفات ساحرة ، سحرتك تلك الشبابيك التي تشبه شبابيك نابلس والخليل ، شبابيك خشبية

بارزة مطلة على الشارع بأشكال هندسية بديعة تؤمن للساكن رؤية الشارع دون أن يستطيع أحد من رؤيته!

كل شيء في المدينة بدا دافئًا وحميميًا ، الطرق المرصوفة ، المشربيات الخشبية ، الشوارع ، الناس ، الآثار التي تعانق الناس ، لهفة الناس ومحبتهم عندما يعرفون أننا من فلسطين .

تصوري يا بهية . . فندق الكارلتون الذي نزلنا فيه والذي يقع أمام قلعة حلب ، لقدم تهدم وتهدمت أسوار القلعة .

تلك المدينة التي عشقناها أصبحت ركامًا يا بهية!

الحريق لا ينطفئ في المدينة! كم هو صعب أن نرى ما نرى ونبقى صامتين . هل نعتاد الموت يا بهية كما نعتاد الانحناء؟!

الموتى في كل مكان ، الجثث المتفحمة تحيرني! كيف تصبح صغيرة بهذا الحجم؟! أم هي لأطفال صغار فعلاً؟!

قطع بشرية متناثرة هنا وهناك .

لماذا نشبه بعضا بعض في الموت؟

لماذا تبدو حكايا الموت والهزيمة حكاية واحدة؟

طعم الموت وشكله . . صار واحدًا!

النكبة ما عادت فلسطينية يا بهية ، ذات الأفواه الفاغرة والعيون المنطفئة ، ذات الوحشية في الذبح والبقر! وكأنها يدٌ واحدة! أجزم أنها ذات اليد الصهيونية بمسميات أخرى!

ما الذي حصل يا بهية؟

الجرح لم يبق جرحًا واحدًا! الجرح بات جراحًا من المحيط

إلى الخليج . وتكاثر النزف من الجسد الواحد ، والضماد معنا ، لكننا بخلنا به على أنفسنا!

كل العواصم يا بهية باتت تحمل ملامح العدو وتتكلم لغته! إسرائيل امتدت وتجذرت في كل الوطن العربي تحت عدة مسميات . استحدثوا لنا أسماء جديدة . كل عدة سنوات يصنعون لنا مجموعات إرهابية جديدة ، يغذونها ، يلمعونها ، يضخون لها إعلاميًا حتى نصدق ولادتها من رحمنا! ونحن منها براء!

هل نحن من اختار العبودية يا بهية؟

نعم . . أجزم بذلك . . فالطاغية لن يصبح طاغية لولا أننا ركعنا له! والسيف لن يصبح حبلاً لولا أننا تركناه في غمده حتى ارتخى!

الجرح ابتدأ فلسطينيًا ، ثم امتدّ واتسع لبلادنا من المحيط إلى الخليج .

تبعثرنا بدأ من هنا . . من فلسطين ، عندما صرنا ورقة جافة في مهب الريح ، من القدس تبتدئ الحكاية ، فالمشروع الصهيوني لم يستهدف فلسطين فقط ، بل استهدف كل الوطن العربي ومشروعه النهضوي والحضاري .

في القدس سالت الدمعة الأولى واكتمل نصاب الدموع في سوريا والعراق وليبيا واليمن ومصر . .

التنور فار يابهية والسفينة لن تحمل معها إلا من كسر القيد!

باقة ورد

ماهر . .

سيبدو الحزن قاسيًا وعميقًا في ذاتنا . . لكن على قدر قسوته ووحشيته سيزرع لك ألف وردة ، وسيمنح روحك ألف فرح .

أقف قبالتك مباشرة ، مشاعري تتسع وتلمع ، أهذي ببعض الكلمات الغير مفهومة همسًا! أذوب فرحًا ، فتحتَ ذراعيك واسعًا ، وكأنك تحضنني ، لم أرفع عيني في عينك ، تمالكتُ نفسي بصعوبة ، تناثرت زهور الحنين والشوق الجافة الممزقة على روحك الزاهية فانتفضت فيها روح الحياة ، أشعر بالغليان يجتاحني .

عشر دقائق من الصمت ، وكأننا مخطوبان ولا نعرف من أين نبتدئ الكلام . . أسترق النظرات إليك وكأنني أراك لأول مرة!

الحب في بعض الأحيان لا يحتاج للكلمات! يحتاج إلى ضوء الصمت وبوح العين!

تنظر إليّ بولَه ٍوتقول بصوت يقفز فرحًا :

- يا الله شو حليانة يا بهية . هذه الكلمة كانت كافية لتنفض عني ملح الحزن وتعيدني لفلك الرضا . تظل تتأملني وأهرب من عيونك .

تكمل :

- وكأنك نحفانة ، لكن وجهك يبدو أجمل وعيناك أوسع أرى فيهما سماء حانية .

أشرتَ لي أن أبتعد قليلاً عن الزجاج . . ابتعدت . . قلت لي . . أكثر أكثر . . استديري لأراك كأميرة .

نعم كنت ألبس ملابس جديدة اشتريتها قبل يومين لأجلك ، كنتَ تتأملني ، تعانقني بابتسامتك ونظرة عينك ، لم أكثرت للنساء حولي اللواتي أخذن يسخرن مني مازحات . . قلتُ لك يومها :

- عندما أكون معك لا أشعر بالعالم حولي .

- كيف رأيتني يا بهية؟ هل كبرت؟

- لا يا نور عيني ، لقد ازددت جمالاً وبهاءً . . أنت كما عرفتك لم تتغير . . لم تكبر وكأنك ترشف ماء الشباب كما ترشف القهوة .

وماذا عن الشعرات البيضاء يا بهية؟

أضحك وأتساءل :

- اي شعرات بيضاء؟ لم أنتبه لهن! آوه . . هذه الشعرات البيضاء في ذقنك كأنها كوكب دري . . زادتك بهاء وألقًا ووقارًا . لا تقلق منهن . . فقد ظهر بعض منهن في رأسي وهكذا نتعادل . .

قلت ودم الشوق يسيل بين السطور :

- متى أستطيع أن أضع يدي في يدك . . لا تفهميني خطأ . . لا يشبه الرجال من رأى في المرأة جسدًا أخضر فقط ، اشتقتُ لروحك يا بهية . . لا أدري ماذا سيحصل لي حين ألقاك نجمة بين يدي؟ ماذا سيحصل لروحي عندما تتلألأ مع روحك؟

أتنهد كما تتنهد نجمة ضيعت فلكها ، وأصمت!

لو رأيتني يابهية كيف أدعو الله بعد صلاة الفجر ، أتوسل إليه أن أعود إليك . .أتدرين؟ أصعب الإختبارات التي نجحتُ فيها قبل العملية . . هي أنتِ!

قبل العملية كنت أتأمل فيك كثيرًا وأقول والله مرتي ملكة والله ملكة . . كنت أنظر إليكِ وأقول :

- يارب إنت شايف ما رح أتركها إلا عشانك ، وأنت تعرف مقدار تعلقي بها . . كان الاختبار صعبًا جدًا وأصعب ما فيه أنت . . ترددي قبل العملية كان بسببك إلى أن حسمت أمري ومكنني الله .

عندما يراني الأسرى في الزنزانة يشفقون علي . . أحدهم قال لي :

- بحلف لك إنك طالع والله ما إنت مطول والله إنك طالع .

- يا بهية أنا هنا خلف القضبان لا أملك سوى الدعوات ودقائق قليلة أتصل بها عليك خفية عن عين السجان ، أعلم

أنك تنتظرين مني ما ينتظره العاشقون المحبون . . من سحر الكلمات والأشعار وأريج الورود ، لكنني أسير خلف القضبان .

أذوب حنانًا ، وأصمت ، ولا أتكلم ، فالكلمات تسجد في محراب حبك ، تتزاحم الكلمات والمشاعر ، أخبئها بعد كل زيارة لأكتبها وأعيدها لك مرة أخرى ، بيضاء ناصعة لا غبش فيها .

أخذت تتأسف لي . . أنه أتى عيد ميلادي ولم تستطع أن تأتي لي بهدية . . قلت :

– كم أتمنى أن أكون معك وأدخل عليك بباقة ورد ، وهنا انفجرتَ بالبكاء وبكيتُ ولم أعد أحتمل!

عدت إلى البيت . . بعدهابأيام . . استيقظت وقد تقويت على أيامي القادمة بتلك الزيارة ، شربت القهوة ، رن جرس الباب وإذ بأختي تحمل باقة ورد جوري مكتوب عليها ١/٥ وسألتني :

– بماذا يذكرك هذا التاريخ؟

ضحكتُ وقفزت من مكاني . . صرخت . . إذن . . هو ماهر!

– هذا تاريخ عقد قراننا ، ثم أخرجت أختي دبلة جديدة كنتَ قد أوصيتها بها وكأنك تخطبني من جديد ، ولم تمض دقائق حتى اتصلت من داخل السجن في غفلة من السجان لتنشد لي كلمات حضرتها مسبقًا!

يمكن للمرأة في لحظة ما أن تسند الرجل؛

بهية!

وحدك من تزرعين ورود الصبر في مقلتي! أعدكُ أننا سنقطفها معًا .

أعرف يابهية أن الإنتظار جمر يشعل الصدرا تنتظرين زيارتي لتحلّي الجديلة ، تنتظرين رسائلي وقلبك الدفء والنور ، تنتظرين إنهاء الإضراب لتكتبي نشيد الصبر! وتنتظرين الإفراج كشوق غيمة لأرض تمد يدها وقد أثخنها العطش . تنتظرين يدي توضع في يدك لتبرأ الجراح . وتنتظرين طفلنا ليكبر حتى لاتشيخ الأنفاس العاشقة للوطن .

كم أشعر بحرارة أنفاسك وأنا أتخيلك تقرأين كلماتي! أعرف أنك تنتظرين مني أي خبر كما ننتظر نحن أي تحرك . . أو مظاهرات ومسيرات واعتصامات جماهيرية ، نحن لا ننتظر خيط النور الذي يتسلل إلى الزنزانة ، بل ننتظر أن تكملوا المعركة في الخارج!

أعرف أنك تفكرين بي في كل لحظة . تجلسين على سجادة الصلاة لتنسجين الدعوات . لا تنامين لأجلي خاصة بعدما سمعتِ بانضمامي للأسرى في إضرابهم الشامل الذي

يعني عدم حصول الأسير على سوائل أو مدعمات غذائية بل يقتصر على تناول الملح والماء!

هاهو الإضراب يمضي . . كم انقضى منه؟ مئات السنين يابهية . . نعم الثانية الواحدة بمئة سنة . لكن لا أخفيكِ . . أنا الآن أشعر بطاقة وراحة عجيبة وصفاء ذهني ، لكن الأيام القادمة ستكون صعبة وقاسية . لذلك قد لا أستطيع الكتابة لك . . فلا تقلقي!

هذه المعركة يخوضها الجسد في الظاهر! لكنها معركة الداخل بامتياز! الذبول والجفاف والعيون الغائرة والعظام الناشزة والسواد الذي يلف العينين ، رائحة الفم الكريهة ، الصداع الشديد ، عدم القدرة على التحكم في حركة العينين ، القيء ، صعوبة البلع ، الضعف والإجهاد الشديد . . هذا كله ذبول للجسد . . هذا لا يعني شيئاً أبدًا! المهم ألاّ تجف الروح .

أشد الأمور غرابة يا بهية . . أن هذه الأرواح الحرة المحلقة . . مكبلةَ الجسد! الصبر يسجد عند الأقدام والعطش يرتوي من إرادة الرجال والجوع يسكن الجسد لكنه يمطر الروح بالسكينة!

أعتقد الآن أنك تحاولين رسم صورتي وصورة رفاقي وماذا سيحصل لي أثناء الإضراب وبعده؟ كيف أصحو وكيف أنام؟ ما أخبار الأسرى من حولي وماذا يفعلون؟

وقد تتساءلين كيف حدث هذا؟

هاهي جدران السجن تنصت لما أقول :

لم نتوصل لهذا القرار إلا بعدما أغلقت في وجهنا كل الأبواب . يا بهية! كان قرار الإضراب من أصعب القرارات التي نتخذها ؛ فالإعداد للإضراب استمر لعدة شهور قبل أن نتوصل إلى الإتفاق بشأنه واتخاذ القرار النهائي والاتفاق على قائمة المطالب .

وضعونا خلف القضبان ، ظنوا بذلك أنهم دفنوا أصل الحكاية ، اعتقدوا أنهم الأحرار لكننا جعلناهم هم الأسرى ، لقد أشعلنا السجن وأتعبنا السجان!

أُعيد قراءة المطالب . أشعر بالحزن! ما أقل مطالبنا! مطالب تبدو أصغر من قنديل يضيء العتمة لكنها تسمح لنا بنفاد النور إلى انسانيتنا المرهقة!

عارياً من جديد أجد نفسي أمام الضابط! التفتيش المهين مرة أخرى!

لم يرَ أمه منذ تسع سنوات! وذاك لم يرَ خطيبته منذ دخل السجن! رائحة الموت عالقة بالقضبان ، نموت ونحن ننتظر الطبيب ، الزنزانة مليئة بالأجنحة لكنها لا تطير ، أعوام من العزل الانفرادي . هذا بالضبط ما أضربنا من أجله!

مئات السنين يابهية مرّت! بدأت الآن أعاني من صعوبة شديدة في البلع ، الجنود حولي يتحلقون على بعد أمتار قليلة يقومون بحملة شواء!

هاهم ينقلونني ومجموعة من الأسرى إلى مستشفى صرفند! أحدهم رغم مافيه مازال يلقي النكات هنا وهناك ،

لديه القدرة على إضحاك كل الأسرى المضربين عن الطعام وقد دفعني ذلك أن أتساءل :

هل قدرته تلك مردها إلى الوزن الزائد الذي يمتلكه؟

وكان الأسرى الأكثر وزناً يمتازون بقدرتهم الفائقة على تحمل تبعات الإضراب ؛ فالدهون المخزنة في أجسادهم الممتلئة تسمح لهم بالإستمرار أكثر وأكثر . في هذه اللحظات يابهية كم تمنيت أن أكون سمينًا!

استمدّ قوتي منك يابهية . . ما أجمل أن تصبح حواء هي المنقذ والملاذ!

تأتين لزيارتي في المستشفى ، أعرف مِن نظرات عينيك أنك أُصبتِ بالرعب والصدمة من منظري ، لكنك دفنت الصدمة بابتسامة رقيقة عذبة كما الماء .

أسمعك ترددين أمنياتي ، تسيرين في طريق وعرة يابهية ، تلقين الكلمات الجماهيرية ، تقودين المظاهرات ، تخاطبين القنوات الفضائية . .

قد تحمل الجذوة امرأة . . تضيء لكل الرجال . .

اكتشفتُ أنه يمكن للمرأة في لحظة ما أن تسند الرجل! لا بل قد تسند قامة الوطن ، تحميه بظهرها ، تحيي الثورة . . فتنبض الخريطة في قلوب الرجال . .

حين لا تهتز المرأة . .يبقى الرجل قوياً شامخاً ، معك يابهية بقيت شامخاً قويًا!

لم أرَ منك دمعة واحدة! لم تبدِ أي انكسار! رأيتِ سلة كبيرة بجانبي قد امتلأت بمناديل مبللة بالدم ، كنت أخرجه كلما أسعل! وضعتِ يدك على يدي واليد الأخرى تمسدين أقدامي!

أعرف أن جسدي كان باردًا! كان أقرب للموت! لكنك مع ذلك صمدتي! فهذا هو وقت الصمود . . خرجت من عندي بعد ٤٥ دقيقة ولكنك لم تعودي إلى البيت! أعلنتِ أعتصاماً واضراباً عن الطعام أنت وأطفالنا! تجمعت كاميرات الإعلام والصليب الأحمر والشرطة الإسرائيلية التي أصابها الذهول ؛ فهذه الخطوة غير متوقعة أبداً من امرأة وأطفالها! بعد دقائق من الاعتصام بدأ المتضامنون بالتوافد إلى ساحة المستشفى . . من القدس والأراضي المحتلة والضفة . . أدركت الشرطة حينها أن الأمور بدأت تفلت من بين أيديها وأنها لا تستطيع قمع امرأة وأطفالها أمام كاميرات العالم .

في الساعة الرابعة صباحًا . . توصل محامي الأسرى إلى اتفاقية بتلبية كل مطالب الأسرى!

اقترب الأطباء مني ليعطوني بعض السوائل ، رفضت وقلت لن يوقف اضرابي إلا زوجتي . . اقتربتِ مني وناولتني ملعقة شوربة لأعلن مع الأسرى إيقاف الإضراب!

نظر الضابط ذو الرتبة الكبيرة إليَ وإليك ، اعتقدتُ أنه سيوجه لكمة لي ولك ، حدّق بي وقال :

عرفتُ الآن أن ماهر كان يستمد عناده من عنادك!

الحياة لاتعطينا إلا بقدر إصرارنا على الأخذ منها!

بهية الروح!

ها أنا أكتب إليك ليلاً بعدما خلد كل من في الزنزانة إلى النوم . فأنا لا أستطيع كتابة حرف واحد لو كان أحد ما مستيقظًا!

كم كنت أتمنى أن تنجحي في إدخال قطع القماش التي أوصيتك أن تخيطيها عند الخياط ؛ حتى أقوم بعمل ستارة حول سريري لأشعر بنوع من الخصوصية وأنا أكتب لك وأناجيك .

أعرف أنك تحايلت على الضابط الصهيوني كثيرًا . وفي مرة أخرى قصصت الستارة قطعًا صغيرة على شكل (وجوه مخدات) ومع ذلك لم تنفع هذه الحيلة أيضًا!

سأكتب ، وأكتب ، فأنا لا أستطيع النوم ، أتمنى لو أنام يا بهية حتى لو كنتُ واقفاً كالخيل . مزاجي رائق وهادئ ، أتحسس الفرح بأصابع دامية .

يا للفرح وهو يطرق باب زنزانتنا يا بهية .

الزنزانة ليست مجرد قضبان! إنما ترقب لأي خبر يأتي من الخارج! ضجر وقلق! أتدرين يا بهية . . الأخبار سر السعادة! أن

يأتيك خبر من الخارج فهذا يعني أن الزنزانة تضاء! فما أصعب أن تبقى عبدًا لما مضى من حياتك! تجتر الأخبار القديمة والكالحة ، تعيد ترميمها وتلميعها مرة تلو مرة ، ثم تفقد طعمها حتى في جوفك!

اليوم أكلنا السمك بعدما سمحت إدارة السجن بدخوله إلى الأسرى على حساب صديقي الحبيب (داوود) أكلنا السمك (حلوان) خطوبة داوود على نهاد!

نعم لا تستغربي يا بهية خطوبة داوود المحكوم ب٢٠٠ مؤبد . غير أن الأروع في موضوع خطبته ليست الخطبة بحد ذاتها ، الأروع أن هذه الفتاة هي التي خطبته وأصرّت أن تربط مصيرها بمصير أسير قد يقضي جُلّ عمره بل كله في السجن! فرحتنا بخطبة داوود مرتبطة بأشياء كثيرة ، أولها . . أن الماء الراكد في الزنزانة تحرّك! والعشب الجاف الأصفر غدًا مرجًا أخضر!

وثانيها . . أن المرأة هي الوحيدة التي لا يجرؤ الأسير على النطق بحروفها . . ها هي تقترب بريشتها لترسم ملامح الفرح على أسيرها الوحيد الحزين!

أن تقترب المرأة فهذا يعني أن يصبح العالم أكثر احتمالاً وأقل قسوة!

داوود طلّق زوجته الأولى عندما سمع بالحكم الصادر ضده حتى لا يظلمها! والآن ها هو يرتبط بفتاة أخرى . . أصرّت أن

ترهن حياتها بمعجزة الإفراج عنه . هي من سارت صوب شواطئه الجامحة! هي من أيقظت بركانه الخامد ، معها اكتشف أنه مازال على قيد النصر والفرج! . . داوود لم يعد حزينًا ، وعينه التي كانت تقف دومًا على حدّ البكاء صارت تقف على حد الفرح!

لقد نسجت خيوط محبته عروة . . عروة . . لم تنهكها المحاوله . . لم تأذن لليأس أن يدوس على حلمها . . مثل غيمة تشتهي أرضًا ترويها! لم تؤمن نصف إيمان ، ولم تعشق نصف عشق . . لم ترتجف ولم تتردد .

لم تخف من صوت عقارب الساعة وهي تركض بسرعة غير آبهة بعمرها ولا بعمره الذي يتسرب من بين أصابعهما كقطرات الماء .

ربطت مصيرها به جعلته مفتاحها للانتماء إلى الأرض والحق والإنسانية والعدالة اقتربت منه وراهنت عليه . . حتى لا تخسر روحها وتصاب بعواء يفتتها ولا يجدي معه دواء .

كانت في الثانوية العامة عندما قام داوود بعملياته التي هزّت كيان إسرائيل! لم تكن تفهم ماذا يحدث داخلها! عندما تتابع أخباره لحظة بلحظة! كلما رأته على شاشات التلفاز لم تكن تعرف سر الابتهاج واللهفة في قلبها! إلا أن الأمر الذي غدت متأكدة منه هو . . أنها سعيدة وقوية لدرجة أنها لا تريد الارتباط إلا بأسيرا!

وعندما انتقلت للجامعة ونشطت في العمل الطلابي وصدر الحكم النهائي في حق داوود وتداولت وسائل الإعلام صورته متكئًا، منشرحًا، مبتسمًا لا مباليًا، وكأنه يطير بأجنحة من نور. حوله الجنود يتحلقون.. حينها لم يعد الأمر مجرد بهجة في القلب! لقد أصبح شيئًا مختلفًا تمامًا! شيئًا أكثر سطوعًا، وحوافه أكثر شراسة وقوة! حكاية يجب أن تبدأ!

لم تبح بسرها لأحد.. إلى أن أُسر أخ لصديقتها المقربة فحمّلته سرها.. وأخبرت صديقتها برغبتها، ونقلت الصديقة رغبة نهاد إلى أخيها الذي بدوره أوصل الأمر إلى داوود.

دُهش داوود.. لم يصدق ما يحدث، وبعث لها برسالة يخبرها فيها بأن ارتباط الأسير بزوجة هو الظلم بعينه، وأن مشروعًا كهذا ينبغي تأجيله لبعد إلى ما بعد الإفراج. فنتائج الارتباط غير معروفة.

قال لها أيضًا.. إنه قد لا يخرج من الأسر إلا إلى القبر. وإن خرج في صفقة من صفقات التبادل فقد يُغتال وقد يُعاد أسره من جديد. فالاحتمالات والسيناريوهات الحزينة كثيرة جدًا، وسيناريو الإفراج وحيد وهش!

قرأنا رسالة داوود لنهاد.. كان خطه مرتعشًا، حادًا، وكأنه يضغط بقلبه على القلم. بعض الكلمات بدت وكأنه لا يريد أن يخطها فهي تحتاج إلى تحليل حتى تُقرأ!

في ذلك اليوم بدت الزنزانة كئيبة وحزينة.. بدونا وكأننا

جرحى بحاجة لمن يحملنا إلى أقرب مشفى، وسيد الجرحى في ذلك اليوم كان (داوود) فقد كنا قريبين من بعضنا.

حاولت التخفيف عنه وبدت كلماتي كحبات دواء مسكنة، عندما يزول أثرها يعود الألم أقوى وأشرس! مرّت أيام بدا داوود فيها شاحبًا! الخطوط التي حول عينيه بدت واضحة وزرقاء، ابتسامته التي يحاول أن يرسمها بدت بلهاء، صار أقل كلامًا!

في تلك الليالي لم يستطع داوود النوم.. كان يرقد في فراشه، ينظر محدقًا إلى في السقف، كانت السماء حنونة مع زخات المطر المتلاحقة.. التي تضرب النافذة العلوية الصغيرة للزنزانة!

كنتُ أنظر لداوود يا بهية، وللمرة الأولى أراه حزينًا بلا شكوى، مستسلمًا بلا احتجاج، صبورًا بلا دعاء!

وتساءلت، أهكذا يصبح وجهي بدونك يا بهية؟!

خفتُ عليه، وخفتُ على نفسي بدون حروفك وأنفاسك!

مرّت ثلاثة شهور، وبدا داوود أنه قد تخلص من قبضة رسالة نهاد، هاهو يتعافى من تلك الوعكة القلبية التي هزّته في أحلك أوقاته احتياجًا وارتباكًا.. ولم تكد الزنزانة تعود لسابق عهدها حتى وصلت رسالة ثانية من نهاد!!

كنا نراقب عيون داوود وهو يقرأ، تمدد أصابعه وانكماشها، تورّد وجهه، بريق عينيه!

كتبت له :

رسمتُ الحلم بريشتي نقطة .. نقطة .. أودعته القلب، طوقته بالدعاء ومشيت على خريطة اللقيا وحرارة النبض .. نحن يا داود نحترف المقاومة كما يحترف غيرنا الركوع!

هل تريد أن تحرر فلسطين لوحدك؟

فلسطين لن تكون لي ولك إلا إذا كنت معك!

في يوم الفتح .. أريد أن أكون بجانبك، يدي في يدك ..

لا تطلب الارتباط بأسير .. سوى امرأة تثق بالنصر، لذلك لن أسمح لك أن تحولني إلى متفرجة!

إذا أردنا هذه الأرض .. لابد أن نقاتل معًا، نتألم معًا .. لنفرح معًا!

أتعرف معنى هذا الارتباط يا داوود؟! هذا يعني أننا انتصرنا على عدونا الذي ظن بأننا سنابل عقيمة لا حياة فيها .. فإذا بنا سنابل ولاّدة .. كلما حُصدت كلما زادت الغلال أكثر وأكثرا .

لا تحرمني هذا العطاء .. لا تحرمني الوقوف بجانب مقاوم بقامتك .. لا تحرمني المقاومة!

لماذا نخاف الفرح يا داوود ولا نستسيغه؟! الحياة لن تعطينا إلا بقدر إصرارنا على الأخذ!

طوى الرسالة .. قال :

على بركة الله .. حينها كبّر الشباب!

البلاء جمر يُنضج الأمنيات

ماهر!

ياصفي الروح!

بعروق خضراء غضة نترث عليها ماء المعجزة أقاوم الحزن ، وبوشوشة الصبر الذي علمتني أبجديته أصمد في دوامة العتمة والتيه ، ألملم ذاتي في كل ليلة وأقف في محرابك طلبًا لوصالك ، يقتلني الظمأ يا ماهر مع أن روحي مبتلة بك حدّ الغرق .

عندما يأتي المساء وتتزاحم الأحداث والأفكار في رأسي ، أشتهي أن أشاركك إياها ، تمر الأحداث الكثيرة بين كل زيارة وزيارة ، أحيانًا تبهت الأحداث وتصبح بلا طعم! لذلك قررت أن أكتب لك في كل يوم حكاية أحكيها لك ، أبحث عنك فيّ لأنفض عن كاهلي شيخوخة الروح التي لامستني أثناء نهاري وأصبح بصحبتك خفيفة كقطرة مطر عندما أبدأ بالبوح لك .

أمسك القلم وأتساءل : من أين أبدأ؟ ماذا أقول؟ ماذا أحذف وماذا أبقي ، هل أختصر أم أسترسل ، هل أتجمل أم أحكي لك عن انهياراتي وانكساراتي .

يالصبر العاشقة حين يكون المعشوق أسيرًا؟ إنها تشبه تلك التي تترصد عصفورًا عند النافذة . . يبدو قريبًا إليها ، تستطيع أن تمسكه بيدها ، ويستحيل عليها عندما تمد يدها نحوه فيطير محلقًا مخلفًا في قلبها حسرة .

ما الذي يحصل عندما أكتب إليك؟

عندما أتخيلك وأستحضر صورتك وأنت تقرأ لي ، أشعر نفسي كفراشة تائهة وجدت نورها . . أشعر وأنت تقرأني بأنك تحميني وتطبطب عليّ ، لحظة انعتاق كلماتي من روحي المتعبة تمتزج بلحظة قراءتك لي يجعلني ملكة متوجة . فأنا امرأة أعشق الرحيل صوب الحروف ويرهقني احتشاد الكلمات التي ليس لها من سبيل .

قد يشيخ القلب ويصاب بالكهولة في بعض الأحيان ، وقد أتعثر لأني عزلاء وحيدة ، لكنك علمتني أن للابتلاء لغة لا يقرأها إلا من وقّت ساعته على توقيت الفرج! علمتني أن لا نار في البلاء إنما هي جمر ينضج الأمنيات!

تمتلئ ذاكرتي بالوجع والسغب ، ذاكراتي جافة ليس فيها تباشير مطرا لكنني مع حادثة أسرك ومع تثاقل الدمع والتماعه أصغيتُ لربي وعرفت أن انحناء الغصن لا يعني سقوطه!

عرفتُ أن المنع مؤلم لكنه يجمل الروح بلؤلؤ منظوم في عقد حر ، عرفت أن المنع ترقية لذي العرش .

وأنا صغيرة يا ماهر كنتُ مولعة بالذهاب للمسجد

الأقصى ، لا أدري ما الذي كان يشدني؟! أهو صوت التكبير؟ أم رجفة الفرح والسكينة على العتبات؟ أم هي أرواح الأنبياء والشهداء؟ خاطت لي أمي ملابس صلاة بيضاء مزركشة بكَشْكَشْ زهري . . عندما كنت ألبس تلك الملابس أتخيل نفسي عروسًا كبيرة تنتظر عاشقها على صهوة جواد يمسك الرسن بقوة ، يخافه الاحتلال ، يحملني ويوصلني إلى مسجدي . عندما تعود إليّ الصورة الآن ولا أدري لماذا تعود الآن بالذات . . أعرف أنِ الحب العظيم يتكئ على الإيمان بقضية كبرى وبعشق فارس لا تنطفئ في يده الجذوة .

استيقظتُ اليوم يا ماهر على أصوات هَرْج ومَرْج ، لففتُ شالي عليّ وخرجتُ مسرعة إلى الشرفة لأستطلَع الأمرَ ، رأيت عائلة يهودية مكونة من أب وأم وأطفالهم الستة يدخلون لبيت جارتنا أم مروان ، كان الجو مليئًا بالضباب ، وهناك ندف من الثلج يتساقط بخفة ، كانت أصوات تكبير المرابطات تعلو في المسجد الأقصى - يبدو أن هناك اقتحامات من قبل المستوطنين ـرأيت أم مروان تُرمى خارج منزلها من قبل العائلة اليهودية وبمساندة قوات الاحتلال .

«أم مروان» نسيتُ أن أخبرك عنها قبل ذلك . . سأحكي لك الآن . .

الأيام الأولى بعد أسرك كانت صعبة وقاسية ، كل الوجوه صارت عندي تشبه بعضها بعضًا عدا استثناءات قليلة جدًا . .

منهم هذه السيدة الستينية . هي من الذين يدخلون القلب دون ضجيج ، وهي من الناس الذين تشعر بأنهم موجودون في قلبك حتى قبل أن تراهم ، هذه السيدة هادئة ، يغطي وجهها صفرة التعب والهم ، زوجها مريض ومقعد ، تزورني كل فترة وتزرع البسمة على شفتي مع أنها لا تملكها .

جاءتني ذات يوم وقالت لي :

- لقد تعبت يا بهية! أعتقد أنهم سيرموننا في الشارع!

قلتُ لها بفزع :

- لا يّما . . لن يحدث ذلك أبدًا ، سنذهب ونشتكي ونوّكل أكبر محام .

- ردت بارتجاف :

- وإذا كان القاضي غريمك . . ماذا ستكون النتيجة؟

بقيتْ سنة كاملة تصارع المستوطنين ، ومع ذلك لم أرها لحظة واحدة عاجزة أو منهارة ، كنت كلما دخلت عليها انشقت ابتسامة كبيرة على وجهها ، كان بيتها مليئًا بالحشرات المميتة ولابد من ترميمه ؛ لأنه من المباني القديمة جدًا التي تعود لأجداد زوجها قبل مئة سنة . عندما تقدمت بطلب إلى بلدية الاحتلال رفضوا ذلك بالطبع ؛ فاضطرت إلى الترميم دون ترخيص . وفي يوم جاء يدق بابها رجل سمى نفسه «عزرا» عرّف على نفسه بأنه موظف البلدية وأخذ معلومات كاملة عن البيت والأولاد ، وبعدها بأسبوع فوجئت باستدعاء من المحكمة

ووجدت «عزرا» نفسه يقف أمامها ويدعي أن له الأحقية في ملكية نصف البيت!

ضحكتْ في المحكمة كما لم تضحك من قبل، حتى ظنوا أنها فقدت عقلها. كانت تحاربهم بابتسامتها، ثم قالت لهم بصوت تفوح منه رائحة الماضي الذي تملك:

- ماذا تقولون؟ أنتم غرباء وعابرون وهذه الأرض تعرف ذلك جيدًا، هذه الأرض تملك ذاكرة وتعرف أبناءها، ليس لكم إلا آثار أحذيتكم. أما نحن فلنا الحجر والشجر والغيمات والمطر، لنا طهر الأشلاء وتلك الدماء التي سالت في جذوع الأشجار، لنا التين والزيتون، ويكفي التراب أن نمشي عليه ليستدل علينا! أما أنتم فهذه الأرض ستلفظكم، وحتى الحجر والشجر سيشي بكم ويدل عليكم لتكون نهايتكم.

قلتلها:

- والله إنك شاعرة وأديبة يا أم مروان..

ضحكت وقالت: لم أعرف كيف خرج مني هذا الكلام، الله قوّاني، يا بنتي هم جبناء وضعفاء، دولة كرتون، دولتهم قامت على الخديعة والوهم فلن يفهموا أي لغة سوى لغة القوة والمقاومة؛ لذلك علينا أن لا نستسلم. ومع ذلك هم سيحاولون من أجل باطلهم بكل الوسائل أن يخرجونا من أرضنا.

إنهم يركزون على سلوان والشيخ جراح ووادي الجوز وراس العامود أي المناطق المحيطة بالأقصى حتى تصبح البلدة القديمة

أقلية عربية مقابل أكثرية صهيونية . إنهم لا يتورعون عن اختلاق أي وسائل من شأنها أن ترعبنا وتكوينا وترهقنا وتجعلنا نفر ونملّ . أتوقع يا بهية أن يزداد الضغط ، لكنهم لا يعرفون أن (النار لا تنطفئ بمزيد من الجمر وكذلك المقاومة) .

ورجعت إلى منزلها وما هي إلا أيام حتى أغلق الاحتلال قسمًا من البيت الذي ادّعى «عزرا» أنه له بدعوى أن هذا القسم متنازع عليه ، وتحفظوا على مفاتيحه ، مع أن كل الأوراق الثبوتية تثبت أن هذا المنزل هو ملك لأم مروان وزوجها وأولادها . .

في البيت دارت أم مروان تربت على الحيطان ، تمنحها دفء قلبها وجسارة روحها ، هي تعرف أن الحيطان لن تسلم جسدها للمحتل فهي عصية على الهدم والقلع والاندثار ، تدور وتدور في البيت وهي تعلم أن كل بيت في المدينة المقدسة موجوع وهو على موعد مع معول الهدم أو الاستيطان ،.كل بيت انغرس فيه سكين الاحتلال . لكن كل بيت تتدفق فيه إرادة الصمود وكل بلاطة من بلاطاته تشعل التمرد .

الزيارة

ماهر!

يا قصيدتي الأجمل..

أكتب إليك الآن . . لأن الكتابة حبل لجاة من الانتظار الذي أنا فيه ، إنها تردم الحفرة العميقة بيننا وبين الكروب واليأس! هي طقس ربيعي بديع ومؤلم في آن معًا . . أخاف منه وأشتاق إليه . أشتاق إليه ؛ لأني أشتاقك وأخاف أن أصل إلى حافة الجنون . وأخاف منه ؛ لأنه في أحيان كثيرة يستعصي ويخون .

الكتابة هي درعي الذي أحتمي به من ذلك العويل الذي يملأ رأسي ولا أستطيع أن أخرجه .

انتظار ما لا أمل فيه!!

الانتظار يا ماهر . . العقوبة الأشد إيلامًا . أنتفض كالملسوعة من عقرب حينما يفجؤني الحكم عليك بـ ٢٠٠ مؤبد ، وكأنني أسمع الحكم لأول مرة ، يطرق الحكم رأسي في اليوم آلاف المرات كضوء كاشف يمر فوق رأسي فيكشف الحنين والأشواق وأصبح أقرب إلى كتلة هشة لا قوام لها ولا هيكل!

لماذا يعذبنا الله هكذا يا ماهر؟ وهل يريد تعذيبنا فعلاً؟ حاشاه! إن كل سؤال من أسئلتي يحمل إجابته في طياته . . إن وراء أسئلتي إجابات عند الله لا أعرفها . قد تظهر هذه الإجابات في يوم ما ، وقد يخبئها الله لنا ليوم تشخص فيه الأبصار .

لا نجد إجابات على كثير من أسئلتنا ؛ لأننا نرى جزءاً صغيرًا جدًا من الصورة ، لا الصورة كلها ، ولا يستطيع عقلنا القاصر مهما بلغ من الإحاطة تخيل كل الصورة ولا ما وراءها .

أنبش ذاكرتي وأعود للوراء . . كم كان الله لطيفًا ورحيمًا معنا؟! كم عشنا أيام أُنس وفرح؟! لماذا لا أتذكر سوى هذه القضبان وهذا البعد؟ يغمرني فرح مفاجئ يبلغ بي حد أن أترك القلم جانبًا ، وأتأمل السماء بعين الرضا وأستذكر حسن الظن بالله .

أصبر . . نعم سأصبر .

في أحيان كثيرة أشعر أن الصبر نوع من الاستسلام! ثم أعود وأُجيب نفسي بأنه لو كان كذلك ما جعل الله للصابرين أجرًا بغير حساب .

الله يبتلينا لا ليعرف مهاراتنا على التكيف والتعامل مع الأحداث ، لا يبتلينا ليختبر ذكاءنا وحسن تصرفنا وحكمتنا ؛ بل ليرى كيف نعيد ترميم ذلك الحبل الذي يربطنا به! أو لنصنعه كما يريد!

أن أحسب كل يوم الوقت الباقي للإفراج عنك فهذا نوع من العذاب والألم الشديد ، وأن أحبك وأتعلق بك وأنت البعيد ، فهذا ضرب من ضروب الجنون ، إنه يرمي بي في أودية سحيقة من العتمة والشتات .

حبك كالرحى يطحنني صباح مساء ثم يلقيني على قارعة الطريق ليقول لي :

- إنه ليس لك يا بهية . . إنه للسجن! فأعود وأتمسك بحبل الله فأرى حينها من الكوة المظلمة شمسًا تشرق لي وتقول :

- الفرج قريب!

قوية أنا بك يا ماهر وهشة أيضًا! فحبك هو نقطة قوتي ونقطة ضعفي في آن واحد .

أكتبُ إليك كل ما يجول في خاطري . . ولا أعلم إن كنت سأبعث لك بهذه الرسالة أم سأحتفظ بها في أحد الأدراج مثلما أفعل في بعض الأحيان . . فأنا لا أحب أن أحكي لك عما أعاني ، أكتب بلا ترتيب للأحداث بل بحسب تداعي الأفكار في بالي .

بعد يومين من الآن سأكون في الطريق إليك . . فهذا هو موعد زيارتي النصف سنوية! آخ . . عندما عرفت أن تصريح زيارتي سيكون تصريحًا أمنيًا كدت أقع أرضًا ، فهذا يعني أنني لن أراك إلا كل أربعة أشهر! كل أربعة أشهر وما بينهن من

الأيام متشابهة عديمة اللون والطعم! أبدأ استعدادتي للزيارة وكأنني ذاهبة لجنتي الموعودة .

من عادتي أن أجعل تلك الأيام التي تسبق الزيارة احتفالاً لها طقوس! أحتفل بالنزول للسوق . . أشتري لي ولك ملابس جديدة وبعض الحاجيات التي أوصيتني عليها في آخر زيارة قبل أربعة أشهر ، أطير كفراشة من زهرة لأخرى . . أشتاقك بجانبي كما كنا حين التحضير لسفراتنا المتكررة ، أستذكر طقوسنا التي كنا نقوم بها قبل السفر لأي من البلدان التي زرناها سنويًا . . مصر والأردن وحلب ودبي ، كل سنة كنا نقوم بنفس الطقوس ، الآن صارت الطقوس تتكرر كل أربعة أشهر ، لكن وحدي ، أستحضرك بجانبي حتى أصبر وأتحمل .

في هذه المرة حرصت أن تكون هديتي لك مختلفة تمامًا عن كل المرات السابقة!

هذه المرة اشتريت لك العطر الذي تعشق ، وسكبت كامل العلبة على جواربك القطنية التي أوصيتني عليها قبل ذلك ، تركت الجوارب تجف تمامًا . أعلم مدى فرحتك بهذا العطر الذي تشتهيه منذ زمن وترفض إدارة السجن أن تدخله إليك ، ستحتال عليهم لتنقع الجوارب في محلول مائي لتحصل أنت ورفاقك على العطر الذي تحلمون به!

أما عطري المفضل لديك فقد سكبته على الوسائد التي أوصيتني بها ، سكبتها على الوسائد لتحتفظ برائحتي لأطول

فترة ممكنة ، لنحظى بوقت نلوّنه كما نشاء ولو من خلف القضبان .

لقد أيقنت بعد كل هذه السنوات . . أن السجن يقبع في داخل كل منا لا في القضبان الخارجية التي نرى!

في الطريق إليك أحمل أشياء كثيرة ، أتقوى بها على المسافة الطويلة والتعب البدني ، أختار الكتاب الذي سيرافقني ، أحمّل الصوتيات التي أريد على هاتفي ، أعيد استظهار الآيات التي تحبها حتى أُسمعك إياها بصوتي!

هذه المرة لم آخذ طعامًا للطريق ، أحمل الكحل حتى أضعه على باب السجن قبل الدخول عليك ، أتذكر أنني قلت لك يومًا :

– لو حدث لك مكروه فلن أضع الكحل في عيني أبداً ، وبقيت كذلك إلى أن رأيتك أول مرة في المحكمة .

في الحافلة تتجدد الحكايا كل مرة ، أسمع آلاف القصص المضحكة والمبكية ، لا أحد يسأل أحدًا! كل واحد من الزوار يروي قصته بصوت مسموع وبدون مقدمات ، يستجلبون الصبر والأمل والفرج .

هذه المرة جلست بجانبي زوجة أسير . . عندما بدأت بالكلام عدّلت جلستي ونظرت إليها نظرة المترقب ، قالت وهي تطيل النظر إليّ . . إن زوجها كان يرافق عماد عقل في سجنه . .

قلت لها وأنا أكز على شفتي باستغراب :

- يعني زوجك إلُه أكثر من خمس وعشرين سنة مسجون!!

- قالت : نعم!

وساد صمت حزين لثوانٍ، ثم اندفعت في الحديث مجددًا :

كان لزوجي صديق اسمه «أبو طير» اعتاد أن يُحنّي رأسه ولحيته، وعندما دخل السجن انقطع عن الحناء، واحتال على الأمر بأن طلب من زوجته أن تحضر له الحناء وترشها بالسمسم للتمويه حتى يظن جنود الاحتلال أنها زعتر، وهكذا فعلت، وأدخلت الحناء إلى السجن، وكان يوم عيد للأسرى، وفي الصباح أصبح الأسرى كلهم وقد اصطبغوا بالحناء وجُنَّ جنون الاحتلال!

ضحكتْ وضحكتْ من كل قلبي، وقلت :

- يعني صحيو محنيين!

***

عند وصولنا لسجن نفحة الصحراوي نزلنا من الحافلة، وكان كالعادة هناك رجل يُنصّب نفسه المسؤول عن الحافلة، يدور بين الركاب، يسأل عن الجميع، عن الأسماء وهل سجلناها، يطلب منا أن نتأكد من هوياتنا وأموالنا وهدايانا وحاجياتنا، نزلنا المكان المقفر الخالي الذي لا يحتوي على أي

شيء من مقومات الحياة سوى شجرة متربعة في وسط الصحراء تبدو وكأنها تتحدى الاحتلال حينًا وحينًا أراها وكأنها تريد أن تمسح على جباه الزائرين المتعبين المنهكين.

تظللهم وتحنو عليهم.

ينزل الزوار، يتحلقون حول الشجرة، تصبح الأرض المقفرة ضاحكة مستبشرة، فمنهم من أحضر أشكالاً وألوانًا من الطعام، يأكلون ويشربون ويضحكون ويتعازمون، لكنني هذه المرة وقفت في حالة دهشة عندما رأيتها (الأرجيلة) أحضرها أحدهم معه والتف حوله الجموع وتحول المكان بقدرة قادر إلى مقهى!

هذه المرة انتظرنا أكثر من المعتاد، أدخلونا إلى مكان صغير بالكاد يتسع لنا تمهيدًا لإدخالنا إلى أسرانا.. لكن الوقت مضى سريعًا بصحبة ختيارة سبعينية تلبس ثوبًا فلاحيًا زاهي الألوان (الفوشي مع الأخضر بتناغم مذهل) لأول مرة أرى ثوبًا مطرزًا بهذه الألوان، تمنيت أن أقول لها.. يا حجة شو رأيك تطرزي لي مثله. لكنني تراجعت في آخر لحظة.

عندما تضحك تظهر أسنانها المكسورة والتي لم يتبق منها إلا سنان أماميان، كانت تحكي وتضحك كثيرًا، ولاحقًا اكتشفت أن لها ستة أولاد في سجون الاحتلال!

تضحك وتقول بسخرية مُرة:

-يعني تشكيلة.. عندي من الإداري للمؤبد!! أستغرب

من قدرتها على الاحتمال ، ستة شباب في عمر الورد بعضهم يقضي عقوبة المؤبد وبعضهم الإداري!

عندما ملّت من الانتظار ، بدأت تذهب وتتلصص على الجنود وماذا يفعلون ، وعندما بدأ الزوار بالسؤال لماذا نحن هنا إلى الآن؟

ردت عليهم الحجة أم الياس :

- شكلهم بيتغدوا يا خالتي . الله يسممهم!

كانت تراقب كل تحركاتهم وتعرف كل التفاصيل . بعد قليل ، وعندما طفح الكيل صرنا نبعثها كل عشر دقائق للجنود كي تستعجلهم . .

تضع يدها على خصرها ، تلف شاشتها بإحكام حول رأسها وتصرخ عليهم بالفلاحي :

- الله لا يوفقوا ، بدنا نشوف ولادنا ، بيكفيش ماخدين ولادي الستة ، وكل يوم بدور من معتقل لمعتقل شكل!

أُطيل التأمل في الحجة! أشعر أني أشاهد فلمًا سينمائيًا ، تمر المشاهد سريعًا أمامي وما هي إلا دقائق حتى سمحوا لنا بالدخول إلى الأسرى . .

قد يموت القلب قبل أن يموت الجسد!

بهية . .

يا صوت الحياة في داخلي!

في هذه الزنزانة لا صوت للحياة! الوحشة تملأ المكان! لاشئ ينبض وحبال الوهن تلتف حول جسدي ، كل شئ يبدو أصفراً باهتاً جافاً!

الزنزانة تجعلني أقترب من نفسي أكثر فأكتشف أن لديّ القدرة على ترويض الألم!

البشر يتساوون أمام الألم ، يصرخون ، يتذمرون ، لكن المنتصر هو من يورق الفرح في كفه! المنتصر هو من يمسح دمعه بكف وبالكف الأخرى يكسر قيده!

الله لن يورثك القيد إن لم تكن ترضاه! الله لن يضع القيد في معصمك إن لم تكن قادراً على تحطيمه!

ها أنا أحتال على الفرح . . أجرّه بخيوط حريرية .

اليوم صباحاً قمت بغسل ونقع جواربي القطنية المعطرة التي أهديتني إياها في زيارتك الأخيرة لي .

هاهو العطر المركز الذي سكبته على الجوارب يغمرني بالرضا ويزرع ياسمينة تبدد قسوة المكان .

رائحة العطر نفاذه وقوية ؛ أعتقد أنك أفرغت أكثر من علبة! أليس كذلك؟

غسلت الجوارب ، نقعتها بالماء ثم أخذت الماء وعبئته بالقوارير فصار عندي قوارير كثيرة من العطر الفواح وزّعته على رفاق الزنزانة . . لقد حصلنا على العطر أخيراً يابهية!

لكن عطري الخاص أشمه من الوسادة ، تُغرقين غطاء الوسادة خاصتي بعطرك الذي أحب فتختلط رائحة عطرك الذي أحب بعدة روائح ، رائحة الحرية ، رائحة العفن والرطوبة في الزنزانة ، رائحة الأولاد . . لكن رائحتك تبقى الأقوى!

نحن نستطيع أن نُعتّق أحلامنا المغلولة بأي وسيلة ، المهم أن يكون القلب هو الوقود! أطوي الغطاء جيداً ؛ لأحتفظ بالرائحة العطرية لأطول فترة ممكنة ، هذه الوسادة المعطرة هي الانتصار على السجان . . هي محاولة للاستمرار في الحياة رغم كل شيء!

يدهشني الآن أنني أشعر بالسعادة لأمور تافهة! قد تبدو تافهة قبل حين! لكنها الآن تغدو ذات قيمة في السجن (غطاء وسادة معطر ، محلول عطري جُلّه ماء ، حكايات ، كلمات ، الفجر ، ضوء الشمس ، الشارع ، النافذة ، الباب ، التراب ، الشجر ، الحجر)

في السجن تتعلم أن تعيش الحياة ، تعتاد الحرمان فتكتشف المعنى الحقيقي للسعادة! إنها تشبه قطرة ماء رقراقة

عذبة تنعشك لثواني ثم تتسرب من بين يديك!

في أي لحظة يابهية قد أتوقف عن الكتابة وأضع القلم جانبًا ، لاتقلقي سأعود لأكتب . .

إنني الآن أُحضّر سدر كنافة لكل من في الزنزانة بمناسبة عودة فيصل إلى الزنزانة . وبما أن المقادير التي أعطيتني إياها في آخر زيارة ليست موجودة فقد تحايلنا على الأمر .

الجبنة البيضاء غير موجودة لذلك استبدلناها بالجبنة الصفراء ، أما عجينة الكنافة فقد استعضنا عنها بالخبز المحمص المبروش . وصبغة الكنافة استبدلناها بالكركم . لقد جهزتها كاملة ووضعتها على البلاطة الكهربائية حتى تنضج ثم أصب عليها القطر ، سأخبرك بالطعم بعد أن تكتمل .

هناك خبر حلو مثل الكنافة ، لا تذهبي بأفكارك بعيدًا ، ليس هناك صفقة افراج!

لقد سمحوا لنا أخيراً بإدخال كرتونة بيض ، ستضحكين وأنت تقرأين كلماتي ، أعرف ذلك وأنتظر لأسمع صوت ضحكتك ، لكن صوت ضحكتك لم يصلني وتعليقاتك ومعاتبتك الحانية بأنني يجب أن أمتنع عن أكل الكثير من البيض لم تصلني أيضًا!

لكنني وسط هذا الصمت أصنع ضحكتك الخاصة!

كم كنت تحاولين منعي من أكل البيض لأنني أكثر منه . .! هاقد حُرمت منه لسنوات طويلة . . اليوم سأقلي بيض

(بعيون) كما أحب وبطريقتك . سأضع زيت الزيتون في المقلاة ، أجعله يسخن ثم أفقس البيض وأبدأ بأخذ رشات من الزيت وأضعه فوق البيض حتى يتحمر من الخارج وأقرمشها!

قبل أن نأكل سدر الكنافة وفي أثناء توزيعه على رفاق الزنزانة تذكرت فيصل فبكيت . لو كان هنا الآن لأكل من الكنافة ، لقد أخذوه قبل أيام إلى زنزانة العزل الانفرادي لإنه أنجب طفلاً رغماً عنهم ، سأحكي لك لاحقاً حكايته مع الإنجاب وهو خلف القضبان!

ذات ليلة أيقظني فيصل وهو يصرخ بأعلى صوته :

- كف الأخوة غدت سكينًا!

لم أفهم مايقول ، سقيته ماء ، هدّأت من روعه . .

لطالما رأيته صامتاً ، مرتعشًا ، منزويًا! كنا في الزنزانة نحاول أن نجعله يتكلم! كان يتعامل معنا بحذر شديد وهذا حقه . هكذا كنا نقول! فحق السجين أن يخاف من العصافير واستدراجهم له ، كان يحمي نفسه بالصمت ولكننا كنا نلحظ أنه يجف! لقد أصبح كالعود اليابس!

قال وهو يشرب رشفات من الماء :

- هل من طريقة لمعالجة الذكريات؟

- كيف ننظف الذاكرة؟ أريد أن أحيا وكأنني ولدت من جديد . جسده يهتز ، بدت الصدمة واضحة على ملامحه ، اصفرار مفاجئ يعلو وجهه . . يبدو أنه تعرّض لأمر جلل!

قال بذهول :

لم يمض وقت طويل حتى أحببناه ، كنا نصلي خلفه نحن فتية الحي ، كنا نحب ذكاءه وفطنته وسرعة بديهته ، يعرف جيداً كيف يتعامل مع الأحداث ويحل المشاكل بروية ، باستطاعتك أن تقول عنه أنه داهية!

بلع فيصل ريقه وكأنه يخاف من شئ قادم!

كنا نصلي خلفه ،لم يتخلف مرة واحدة عن الصلاة ، يحب الجميع ويخدم الجميع ، يمتلك صوتاً ذهبيًا . . عشقنا القرآن بصوته . ليس صوته هو الذهبي فقط ، بل يملك سخاء ذهبيًا أيضًا! لم يحدث أن ردّ سائلاً ، كان يساعد كل من يطلب المساعدة ، له وجه ملائكي وشعر كستنائي ناعم ووجه أبيض متلألئ وهناك شامة كبيرة تتربع عند طرف أنفه ، عندما نستمع لمحاضراته في المسجد نبكي ونحلق!

كان يحذرنا دوماً من السقوط في وحل العمالة ،وكم كان مؤثراً وهو يسرد علينا قصص لشباب فلسطيني وقع في هذه المصيدة من خلال مكالمة هاتفية مع فتاة! اتصال واحد كفيل بأن يوقعك في المصيدة! كلهن في البدايات رقيقات ، حالمات ، لكن بعد ذلك تكتشف أنهن مجندات لحساب الاحتلال!

هذا بالضبط ماكان يقوله . . ثم يفتح صدره واسعًا ويضرب بيديه على صدره ويصرخ محذرًا :

- إن شعرت أنك أخطأت وأحسست بأنك محاصرا! وأن

هذا الخطأ قد يضر بوطنك أو بك . . تعال عندي فصدري واسع يسع الكل ، إياك أن تتردد ، أنا سأساعدك . .

كلماته تغوص في أذني الآن! لا أستطيع أن أمحو هذا الصوت من ذاكرتي ، كان صوته حنونًا واثقًا حازمًا ، لكنه لم يسمع صوت قلبه ، فرب شهوة أكلت أخضر القلب وجعلته هشيمًا . هل يعقل أن يحمل شيخي جلد السمكة البراقة اللامعة مع أنه يعيش في الوحل!

قلتُ له :

- ماذا تقصد؟

- نعم إنه كسمكة الطين جلدها ناعم وبراق ولامع . كان يتآكل ببطء وينهار دون أن يعرف به أحد .

سمعتُ مرة أنه ضرب ابنه ضربًا مبرحًا وطرده من المنزل لا لسبب وجيه ، بل لأنه طلب زيادة في مصروفه الشخصي وبالطبع لم أكن أصدق ذلك .

كان يحلم أن يصبح تاجرًا كبيرًا ومالمشكلة في ذلك؟

تحشرج صوت فيصل واختنق بكلمات تمنى ألا يتفوه بها . لكنه في النهاية قالها . .

تواصلت معه فتاة . . منحته شيئًا كان يفتقد إليه مع أنه كان يحب زوجته ، لكن يبدو أن تلك الفتاة حاصرته جيدًا .

سجل له الشاباك مكالمته مع الفتاة دون أن يعرف أنها مجندة صهيونية ، تحدث معه ضابط المخابرات الاسرائيلية وقال له :

- يجب أن تساعدنا . .

رفض في البداية . رفض مرة وثانية وثالثة ، لكنه في النهاية جمع رذاذ روحه المتهالكة وألقاها في مهب ريح الاحتلال فبعثرته وأحرقته!

استسلم في النهاية . بعدها هدده الضابط الصهيوني بأنه سينشر كل مكالماته مع تلك الفتاة .

كان يريد اللجوء لرجال المقاومة حتى يعرض عليهم القصة ، لكنه خاف من السمعة السيئة التي ستلاحقه أينما كان!

ظن بأنه سيفرّ من السمعة السيئة لكنه أحاط نفسه بحبل من مسد . وفعلاً بدأ يتخابر مع اليهود . .

ما الذي يحصل للقلب ياترى؟

كيف ينقلب؟

ما الذي يفسده؟!

أيفسده أن يملأ بالشوائب؟ أيفسده أن لا يكون لله نصيب من الحب؟ إما أن تكون كلك لله بلاضجيج! وإما أن تخسر كل شيء!

لم يكن شيخي يفكر بشئ سوى بالفضيحة التي سيؤول إليها . . تبخرت كل الحلول من أمام ناظريه ولم يبق معه سوى الحل الذي عرضه ضابط الشاباك بشكل مباغت وتركه غير قادر على التفكير!

لقد طلب منه ضابط الشاباك أن يزوده بأي خطط قادمة ضد اليهود .

كان شيخي في مرات كثيرة لايخبره وفي أحيان أخرى يخبره . . إلى أن أخبره مرة عن عملية كانت ستنفذ في الداخل المحتل وستوقع عدد كبير من القتلى والجرحى ولربما كان هناك عملية أسر جنود . . أستطيع أن أجزم أن إخباره للضابط بهذه العملية هي التي أماتت قلبه .

فقد يموت القلب قبل أن يموت الجسد!

بدأ رجال المقاومة بالتنفيذ وحين وصلوا إلى قلب الداخل المحتل (وقع المنفذ بالأسر) وقعتُ بالأسر . . نعم أنا المنفذ الذي وقعت بالأسر والسبب هو شيخي . . حينها بدأ رجال المقاومة يشكون في أمره لإنه واحد من ثلاثة فقط يعرفون بالعملية! حقق معه رجال المقاومة لكنه استطاع أن يضللهم وخرج من التحقيق سالماً وعاد ليزوال ويكمل التمثيلية!

لكنه ومع خروجه من التحقيق سالماً إلا أنني كنت على يقين أنه هو الذي وشى بي وبرفاقي . لقد كنت أراه في منامي ، أحلم به في كل ليلة . .يوقظني صوته! إلى أن جاءني خبر موته!

الليلة حلمت به أيضًا! تذكرت أنه مات . مات منذ زمن .

لماذا عاد إليّ إذًا؟!

قاطعته بدهشة وكيف مات؟

كنتُ قد بعث إليه برسالة قبل أنْ يلقي رجال المقاومة القبض عليه، فقد كان حدسي يخبرني أنه هو!

قلت له :

يا شيخي كم مرة صليت خلفك وأمنّت على دعائك؟ كم مرة ترنمت بتلاوتك للقرآن؟ لاتخن دمك! لاتبع صوتك، سيسكنك الجمر، ستغادرك السكينة، سيفور التنور ولن تحملك السفينة، العاصفة ستنجلي ولن يبقى الا اسمك في سجل الخائنين .

حينها بعث لي برسالة يهددني فيها .

لكن رجال المقاومة لم يتركوه بمجرد انتهاء التحقيق معه! لقد كانوا يراقبونه . . كان يكثر من الخروج ليلاً! وفي مرة تابعه أحد رجالنا وهو يدخل إلى المناطق المحتلة ويلتقي بضابط كبير ويتسلم منه مبلغ مالي كبير مقابل معلومات مهمة .

أمسكت به المقاومة . . حينها انهار واعترف وأخذ يصرخ :

- أنا أثق بإسرائيل وضباطها! أنا كنت أتعامل معهم كإبن لهم! اسرائيل لن تخذلني! ستنقذني منكم . . إنها الأقوى .

حكم عليه رجال المقاومة بالإعدام، يومها عرفت أن الكلام عن المقاومة مغرِ! لكن إن كان الكلام عاقراً فلن تقطف منه سوى شجر الزقوم!

خافضة رافعة!!

القدس يا نور عيني خافضة رافعة! هاهي اليوم ترفع اسمًا آخر، يعزف ذات لحنك، يحمل نفس ملامحك؛ فملامح الشهادة كابتسامات السنابل!

شعلتك لم تنطفئ يا ماهر! هاهو(فادي القنبر) يحيطها بيديه فتتوهج من جديد ليبصر التائهون، ليضيء العتمة التي دبّت في الأوصال .

الانتفاضة بعدك مازالت متواصلة! مئات العمليات التي زلزلت كيان الصهاينة، كثيرون هم الورثة يا ماهر، ورثوا عشقك المقدسي، ورثوا منجلك الذي تطارد به ريحان الشهادة!

العمليات الفردية أيضًا مازالت مستمرة، تصعد حينًا فيفجر المقاومون الدمامل التي نبتت في الجسد الضعيف بغضب عارم!

وأحيانًا تهبط وتستكين كماهو هدوء ما بعد العاصفة .

الأرض مازالت تغني للراحلين على ثراها تدغدغ أطرافهم، تزرعهم زيتونًا وزهرًا! ووعدًا بالغيث الذي أثقل الغيمات الحبلى!

ما جعلني أكتب إليك في هذه اللحظة هو الفرح؛ فمشهد

جنود الاحتلال «لواء جولاني» وهم يهربون سيظل عالقًا في ذهني وأذهان الشرفاء . . هؤلاء الجنود الذين حصلوا على رتب عالية في حرب غزة الأخيرة تساقطوا أمامنا كجنادب مذعورة!

مرّت علينا أسابيع طويلة . . كان فيها الصمت والترقب والارتعاش! حتى ظننت أن الانتفاضة توقفت ، وأن الجذوة خمدت ، ثم ما لبثت أن اشتعلت من جديد .

أعود وأتأمل تلك الشاحنة التي قادها ذلك الأسير المحرر . . سيد الأبرياء الأنقياء!

اليوم حكاية أخرى يا ماهر . والحكاية تكتب بأنفاس جديدة فتهب العزة لروح المدينة الحزينة . على وقع مشهد الشاحنة ، ذلك المشهد النوراني أدندن وأكتب :

عشرات القتلى والجرحى يا ماهر من الجنود ، هذا ليس مهمًا أبدًا! ما زرع البسمة في روحي ، هو ذلك الوهن الذي يعشش في خلايا الجيش الذي لا يقهر!!

هروب جماعي لأفضل ألوية الجيش أمام مقاوم واحد! مدججون بالسلاح والحديد ، يفرون بالمئات أمام شاب لا يحمل سوى سلاح بسيط وعتيق!

هذا جيش منهار من داخله ، يحمل أسباب انهياره في خلاياه ، جبن وفساد وظلم واستعلاء . .

جريدة يديعوت أحرنوت . . تفتتح مقالاتها بأن عليهم أن يخرجوا من القدس الشرقية!

لا أصدق يا ماهر ما أقرأ!!

هاهي القوة الدبلوماسية تنهار ، نسمع دويّ حطامها وانكسارها .

عمليات قليلة ، متفرقة هنا وهناك ، عمليات غير مدبرة بإتقان بسبب تواطؤ السلطة ومطاردتها لأي رائحة غريبة في المكان ، ومع ذلك نحصل على انجاز كهذا!!

القدس التي يردد الصهاينة ليل نهار أنها عاصمتهم الأبدية لمدة ستين عامًا ، هاهي الأصوات تتعالى للتخلي عنها بعد عملية بسيطة . . تفعل الأفاعيل .

هذه الأيدي الزيتونية استطاعت أن تهزّ الاحتلال هزًا عنيفًا ، أن تتركه قاعًا صفصفًا!!

***

أتكهرب وأنا أسمع العقوبة القادمة ، العقوبة الجماعية التي بدأها نتنياهو يوم اعتقالك يا ماهر . . إنهم يتوجهون الآن لهدم بيت الشهيد كما هدموا من قبل منزل الشهيد مصباح أبو صبيح ومهند الحلبي وبهاء عليان . . إلخ

أجلس جانبًا ، فتحتشد الصور والذكريات في رأسي ، تدوي عاليًا كطلقات رصاص .أتنقل بين صورتين . .صورة هدم بيت فادي القنبر وصورة هدم بيتنا!

جاء اتصال من والداتك الساعة الواحدة والنصف ليلاً ، قالت :

- صدر قرار نتنياهو بهدم كل من يقوم بعملية فدائية فورًا ، هذا القرار جعلها تأتي فورًا إلى بيتي هي وأبي في لحظات!

وفي لحظات كان البيت مليئًا بشباب العائلة ، الجيران ، المعارف . . أفرغوا البيت من كل شيء!

كل قطعة أثاث يحملونها ويلقونها في الشاحنة . . يُلقون معها قلبي الذي يشتعل كحطب يابس!

تكوّمت في طرف الصالة كجنين في بطن أمه ، أمسكت يديّ وركبتيّ ، مِلتُ برأسي للأمام ووضعته في حجري ، أغمضت عينيّ وتخيلت نفسي أنا وأنت كنورسين على شاطئ هادئ!

سمعت صوتك يمازحني ونحن ننظف تلك الزاوية من المنزل ، أسمعك ترجوني أن يكون لون الكنب أحمر ، وأن نضع الكنب في ذلك الركن مع السجادة المرقطة . . أقول لك :

-لك أن تختار طقم الجلوس فقط!

لم أرفع رأسي طيلة عملية الإخراج السريعة لأثاث المنزل حتى لا أرى أحلامي وتعبي وكدي وهو يحترق أمامي!

جسدي ينتفض بينما روحي تغلي . . أبكي وأبكي حتى لأشعر أن روحي ستخرج من سمّ الخياط . . أشعر أنني على وشك الإغماء الذي سيأخذني بعيدًا ليريحني مما أنا فيه . أرى روحي تطير وتحلق بعيدًا عني ، لم أصحُ إلا على رذاذ الماء يرشه أبي في وجهي وهو يقول :

- استعيذي يابا من الشيطان الرجيم .

لا أنحني لشيء إلا لمشهد أطفالي ، فما أن غطوا في النوم حتى استيقظوا ليجدوا الغرفة مليئة بالرجال الذين يفرغون كل شيء ويحملون كل شيء وهم لا يعرفون ما الذي يحدث .

أخذتهم أختي وجلست بهم بعيون نصف مفتوحة على درجات المنزل ، ولكن شدة رعبهم وانتفاض أجسادهم جعلني أصرخ بأختي :

- اذهبي بهم بعيدًا . . خذيهم وأجلسيهم في سيارة زوجك ، لا أريد أن يبقوا معي هنا ولا ثانية واحدة!

حينها ركضت مريم صوبي بكل قوة ووقفت بجانبي تهمس لي :

- حاسة بابا رح يطلع قريب كثير والله يا ماما ، حطي إيدك على قلبي وحسي كيف بيدق بسرعة . .!

- طيب شو لون السيارة إلي بيوصلوا فيها الأسرى لما يفرجوا عنهم؟

- ليش؟

لأني بدي أستناه على الشباك طول الليل ، ولما يجي رح أخليه يرجعنا لبيتنا!

أحضن مريم ، أفرُّ من وجعي إلى دمع صامت يغسل القهر الذي في صدري ، أنظر إليهم وهم يحملون الذكريات والصور والضحكات والغيمات ، يلقون كل شيء بسرعة في الشاحنة

قبل أن يأتي جنود الاحتلال ، أقاوم الوجع بالتسبيح والتكبير ، وزيت شعلتي أن بيتي قد سبقني إلى السماء!

أُلقي بأحزاني على كتف المدينة الصابرة فتحملني وتمسح دمعتي بندى الفجر فأستعيد قواي حينًا!

وحينًا تضج حنجرتي ، وتصبح غير قادرة على احتمال حشرجة الصوت وارتعاشه فأتأرجح حتى أوشك على الوقوع لولا أن أمسكني أبي!

خرجت من المنزل (منزلي) في الرابعة صباحًا ، لا أملك سوى بعض المال الذي ليس لي أصلاً ، فقد كان باقي الراتب الذي سأعيده إلى مديرك في العمل . لبست طقم صلاتي وركبت السيارة . الدقائق من بيتي لبيت أهلي مرّت وأنا أضم أولادي بيد ويدي الأخرى مخدرة لا أكاد أشعر بها! رأسي يهوي في جرف هار لا قرار له . وصلنا بيت أهلي وعندما وصلنا إلى المصعد . . اقترب مني عبادة وهو يصرخ بصوت مرتعش لكنه واثق :

بابا راجع . . والله يا ماما بابا راجع! صح يا ماما!

تركت ما في يدي من حاجيات وأغراض ، نظرت إليه بدهشة ، هززته :

- شو مالك؟ ليش بتصرخ؟

فتح الهاتف وأخذ يقلب الصور إلى أن وصل إلى صورتك . . كبّر الصورة وهو ينتفض ، زمّ شفتيه وقلبه يخفق

وكأنه سيخرج من بين ضلوعه ، عيناه ملأى بالدموع الصامتة!
ضممته لصدري . . فانفجر بالبكاء . .

قلتُ له بثقة :

- أكيد بابا رح يطلع قريب .

- متى يعني؟

- متى مابدك!

- بدي ياه يطلع بكره!

خلص بكره رح يجي . . ما تقلق ، الله قادر يطلعه بكره . . صدقني!

بس أنتِ حكيتي لي كثير إنه طالع وما طلع ، كثير أيام أستنى وما يطلع!

شو بتكون مشاعرك وإنت بتتخيل بابا طالع؟

بكون مبسوط كثير .

إذاً وإحنا بنستنى الفرج بنكون في فرج وفرح وانبساط . . صح؟

آه صح!

ولما بتطلب مني شغلة مرات كثيرة بأجّلها وبأخّرها وما بجيبها في الوقت إلي بدك ياه . . بتعرف ليش؟

- ليش؟

لأني بحاول أعمل لك ياها مفاجأة وفي الوقت إلي بتفرح فيه أكثر!

إحنا بندعي الله ويمكن يأخر الاستجابة لأنه سبحانه بيختار الوقت إلي بيناسبنا وبيناسب بابا عشان تكون الفرحة كبيرة كبيرة .

***

في يوم الهدم تحولت الأنفاس المحترقة في صدري إلى دفء وعطر ، غسل الله قلبي بالماء البارد فغدا ساكنًا هادئًا محلقًا!

لم أبكِ نفسي ولا بيتي ولا أولادي ، لم أركض صوب جراحي ، أعددها وألملمها وأخيطها . . بل تركتها مفتوحة وركضتُ صوب باب واحد ، هو باب الله . كل الأبواب كانت مفتوحة أمامي لكنني كنتُ أعرف أن ذلك اختبار من الله ليراني . . أأدخل من تلك الأبواب أم أتوجه لبابه!

وصلتُ إلى باب العمارة ، وجدت كل شباب القدس وفلسطين قد سبقوني وجاؤوا من كل حدب وصوب ، يحملون المنشورات التي أعدوها مسبقًا ، يغنون أغاني وطنية ، يدبكون حتى تهتز الأرض تحت أقدامهم ، يكبرون تكبيرات العيد . .

الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلاً .

هذه التكبيرات نفضت الكدر والهم عن صدري ، شعرتُ أن هذا اليوم هو يوم الجائزة لي ولك ، اليوم الذي سيستقبل الله مني هديتي له . . بيتنا!

ابتسمت للكاميرات وبدأت أوزع الحلوى على الحاضرين

وأنا أزغرد وأهاهي لك ولكل الأسرى ، ابتسمت كزيتونة مثقلة بوجع السنين ، لكنها مبتهجة بحاملي الحق وحلم التحرير!

وقفتُ واثقة بأن خيوط الشمس ستكسر قيد السجان . . حدثت نفسي أني الآن في اختبار وابتلاء ، إن اجتزته تقبل الله مني هذا الدمع الغافي في المحراب ، تقبل الله مني هذا الوجع الساكن في سويداء القلب ، اليوم هو يوم الربح الحقيقي ، إما أن أصبر فأرث الفرح وثناء رب العباد ، وإما أن أجزع وأصرخ فيشمت بي الأعداء! نزعت مسامير الاحتلال التي دقها في روحي وروح أطفالي ، مسحت آثار الدماء الطاهرة ، نثرت الحلوى على الحاضرين فيما لحن جديد يولد على إيقاع النصر . . النصر بابتسامة تقهر المحتل وتغيظه!

أنظر حيناً إلى بيتنا المهدوم . . وحيناً أتابع أخبار الإضراب أتخيلك الآن ، في صدرك وردة . . وفي كفك ثورة . . والملح في فمك غيمة تمطرنا كرامة!

لا يكفي أن تحلم بالحرية عليك أن تهبها بعضاً منك

بهية

لقد انتصرنا!

يحدث أحياناً أن ننتصر ونحن خلف القضبان!

التكبيرات تعلو في زنزانتي والزنازين المجاورة ؛ لا تستغربي ؛ فعندما تشتد العتمة يدخل البعض إلى جحورهم! يظنون أنهم نجوا! لكن الرجال الرجال يشعلون الجذوة ويطلقون التكبيرات!

علت الضحكات والزغاريد والتكبيرات ، ضحكات مدوية تسخر من السجان . فحين يولد طفل فلسطيني فهذا هو الانتصار! فكيف حين يولد طفل لأسير يقع خلف القضبان منذ ١٢ عام؟!

كل منا يستطيع أن يلبس قلادة النصر . ولكن بشرط واحد . . أن نتذكر حين نهزم أكثر من مرة أن الخسارة ليست نهائية وأن المعركة مستمرة ، إنها مجرد جولة!

لقد عاد فيصل قبل قليل إلى الزنزانة الجماعية بعد أن أمضى عقوبته في زنزانة العزل الإنفرادي على مخالفته القانون (إنجاب طفل) لكن التكبيرات ليست بسبب عودته إلى الزنزانة

الجماعية بل بسبب عودته من رؤية طفله الوليد الذي منعه الاحتلال من رؤيته لمدة ١٨ شهر واليوم كان اللقاء الأول بعد نجاح المحامية في استصدار قرار يسمح له بمشاهدة طفله!

عاد لتوه إلى الزنزانة، انطلقت التكبيرات، حملوه على الأكتاف، بينما الجنود في الخارج يرموقننا بغضب!

سألناه:

- هيه.. أخبرنا كيف كان اللقاء؟ نظرنا في عينيه كانتا تلتمعان وترسلان مشاعر أبلغ من كل الحروف والكلمات. صمتَ وتجاهل أسئلتنا.. لكنه عاد يحكي.. وقبل أن أكتب لك ماذا أجاب.. سأكتب لك الحديث الذي دار بين زوجته والضابط الاسرائيلي قبل ١٨ شهر من الآن!

فعندما نادى الضابط الصهيوني على اسم فيصل ضمن الفوج الذي سيدخل للزيارة ورأى الجندي الطفل بين يدي زوجته، سألها:

- من هذا؟

قالت له:

- هذا ابن فيصل.

- مستحيل ماذا تقولين! فيصل كما أعرف مسجون منذ ١٢ سنة وليس لديه سوى ابن وحيد وقد توفي في حادث باص عندما كان عائداً من رحلة مدرسية! فكيف ينجب وهو خلف القضبان؟

قالت بفخر:

- الله قادر!

لا يكفي أن ترغب بالحرية . . لا يكفي أن تحلم بها . . عليك أن تهبها بعضاً منك ، عليك أن تحارب من أجلها!

في لحظات معدودة تجمع الجنود حولها من كل حدب وصوب ، أخذوا يقتربون من الجسد الضعيف الغض ، يتحسسونه ، يرفعون الغطاء عن وجهه! لقد ظنوا أنها جُنت بعدما فقدت طفلها الوحيد في ذلك الحادث وأنها تحمل دمية من هول صدمتها!

لكنهم عندما تأكدوا أنه طفل حديث الولادة لم يتجاوز الاسبوعين! هنا كانت الصفعة التي جعلت وجوههم تلتف وتهتز كبندول الساعة . لقد شعروا أنهم وقعوا في فخ سيكلفهم كثيراً!

علّق أحدهم ساخراً . .

- معجزة يعني؟!

- سمها ما شئت!

أتظن أنك نجحت في سجن فيصل؟ ففي السجن من ينعم بالحرية أكثر من الطلقاء! أتدري لماذا؟ لأنهم يملكون القرار ، لا أحد يحركهم كدمى . ولأنهم قادرون على ارتشاف النصر قطرة . . قطرة حدّ الارتواء!

ظل الجندي ينظر إليها فاغراً فاه وكأنما طار الكلام ولم

يستطع القبض عليه كما لم يستطع القبض على هذا الطفل المعجزة!

أزاحته بيدها وقالت له بقرف :

- ابعد عن طريقي . . أعرف أنك لا تفهم شيئاً مما أقول ، لكنك بالتأكيد تفهم أنني انتصرت . كانت زوجة فيصل تتهادى في مشيتها وهي تحمل طفلها ، تتباهى وتفخر بأنها تتحداهم ، كان قلبها يعزف معزوفة الحياة!

تبتهج أكثر وهي تراهم يتراكضون أمامها كالفئران المذعورة التي هوجمت ولا تعرف جهة الهجوم! تتشبث بالصغير ، تتشبث بالفرح الذي بدا صوته قوياً وعالياً وناعمًا .

يروحون ويجيئون . . تتقاطع نظراتها مع نظراتهم العاجزة الغاضبة ، شعرت أن حبلاً من مسد التف حول أعناقهم ، فهذا الطفل عنوان هزيمتهم .

ركضت باتجاه غرفة الزيارة مسرعة وقبل أن تصل إلى النافذة بخطوات ويحظى فيصل بنظرة لطفله ويتفتح زهر اللقاء ، كان رجال الصليب الأحمر يحيطون بها من كل جانب ويخرجونها من المكان ، فيما ذهب قسم منهم للقاء فيصل يساومونه . . فطلبوا أن يجروا فحص (DNA) ليتأكدوا أن هذا الطفل طفله فيما كانوا يطلبون من زوجته نفس الطلب ، ساوموها . . بأنهم لن يسمحوا لها برؤية زوجها ولا زيارته وسيمنعونه من رؤية طفله إن لم تستجب لمطالبهم .

رفضت . . ورفض . . دون تنسيق مسبق بينهما! وكانت العقوبة أن منعوها من زيارة زوجها ومنعوا فيصل من رؤية الطفل لأشهر طويلة!

شعر فيصل بالزهو وهو يخرج من غرفة التحقيق منتصراً . . سحب نفسًا عميقاً ، ملأ رئتيه بهواء حر لأول مرة يستنشقه ، جفّ الجرح والتئم ، نظر إلى نفسه بفخر وقال :

لقد استطعت أن أهزمهم .

لم ينجحوا في الحصول على أية معلومة تفيدهم في معرفة طريقة (تهريب النطف) فكان جزاؤه العزل الانفرادي وعدم السماح له برؤية أي من أفراد عائلته ومنهم زوجته وطفله!

وهو في طريقه إلى زنزانة العزل الانفرادي وبينما الجنود يحيطون به أخذ يردد

- أخذ يردد : (قد تطبق القضبان على الصدر وتعلق الأغلال في الأعناق لكن السجين المنتصر هو الذي لا يديم النظر في القيد بل يصنع أجنحة يخيطها غرزة غرزة ثم يطلقها على مرأى السجان!)

حينها صبّ الجنود جام غضبهم عليه ، ركلوه ببساطيرهم ، ضربوه بأعقاب بنادقهم على رأسه ووجهه وكل مكان في جسده ، ظلوا يضربونه حتى غاب عن الوعي ونقل إلى المستشفى قطعة لحم بلا عظم!

***

وعاد فيصل إلى الزنزانة الجماعية ، ركضنا نحوه ، حضناه وسألناه :

- هيه . . تكلم . . كيف كان لون اللقاء وشكله وطعمه؟

قال وهو يلحق بالمشاعر التي تضج في قلبه وتدلق كل مافيه :

تخيلتُ نفسي بذرة جافة . . لا ماء يرويها ولا أرض تحضنها وماعرفت أننا ننبت في الظلمة والعطش! ومادريت أن روح الحياة . .تسكن البذرة الجافة .

عندما سمعت بخبر موت ابني الوحيد عبد الحليم . . شعرتُ بأنني أنزف من كل مكان في جسدي! فالجسد ماعاد يحتمل ضرب النصال من كل صوب ، انهارت قواي ، كان عمر عبد الحليم حينما دخلتُ السجن عدة أشهر ، لم أره طوال مدة اعتقالي سوى مرة واحدة فقط! تخيلوا مرة واحدة فقط!!

ولأنني لا أعرف المكتوب وأعرف أن الدعاء يصنع أقداراً جديدة لنا . . رفعت يدي المثقوبة بالوجع والقهر والأنين فإذا هي خضراء ، مزهرة ، تطفئ بنداها الجمر الذي اشتعل في صدري .

الدعاء أمنا الحنونة ، فكلما عذبنا شوك الطريق وطول مداه ، ربّت الدعاء على ظهورنا! ظهورنا التي لم تعد تحتمل المزيد من الأحمال! فلا ظهر يحمل كل هذا الوجع إلا بيقين الفرج!

الحزن الكبير والهم العظيم مجدافه الصبر.. به ننجو من الغرق! واشتعل اليقين في قلبي.. تأملتُ حالي، محكوم بمؤبدات وليس مؤبد واحد! إن خرجت سأخرج على عكاز ويكون قطار الانجاب قد فات زوجتي وتركها زهرة ذابلة! والعمر يتسرب دون ضجيج يليق بالأسير، حينها أسعفني الدمع الممزوج بالدعاء بفكرة! فكرة تكسر القيد وتجعله خيوطاً حريرية ناعمة!

عرضت الفكرة على زوجتي، في البداية رفضت وخافت من كلام الناس وارتعشت وحسبت الأمر من كل الجهات، تربية الصغير من غير أب مسؤلية عظيمة! كلام الناس وكيف تحمل وزوجها في السجن! لكن كل ذلك تناقشنا فيه وأخذنا فتوى من هيئة العلماء المسلمين وقررنا السير في هذا الطريق مهما كلف الأمر وكلام الناس تداركناه بأن اتفقنا مع شيخ القرية بأن يشيع حمل زوجتي عبر مكبرات الصوت لتسمع كل القرية.. فالسير في العتمة قد يغدو ممكناً إن كنتَ تحمل في قلبك نورًا!

هرّبتُ العينة في (كبسولة دواء) أخذتها زوجتي بسرعة إلى مركز الإخصاب بنابلس وبحضور شهود من أهلي وأهلها تمّ استلام العينة وتجميدها ريثما يتم تهيئتها للعملية!

عندما حصل الحمل أذاعوا الخبر عبر مكبرات الصوت في المسجد. وبعد تسعة أشهر كان محمد على يدي والدته!

عندما تملك اليقين كل الكون يمدّ يده لك!

الذاكرة

يا ماهر!

يا حارس الفجر!

كم هو رائع أن تمتلك ذاكرة متوقدة! وكم هو موجع أن تداهمك حيث لا تريد!

كم حاولت أن أستر عُرْيَ روحي ووجع قلبي . . كم حاولت أن ألوّن المرّار بقناع من الابتسامة! كم حاولت أن أبتعد عن فضول النظرات والهمزات والأسئلة ، كنت أنجح في ذلك كثيرًا ؛ لأن النور الخافت الضعيف في داخلنا يقوى ويسطع بالهمس فقط لله .

لكن ما حدث اليوم معي قلبني في لحظة على وجهي وحولّني إلى روح مهترئة فقدت كل طعم للحياة ، فعندما يكون المشهد الذي أمامك هو خليط بين الماضي والحاضر ، خليط من الوحدة والقهر والوجع تصاب بانكسار تسمع له دويًا مجلجلاً . عندما يكون المشهد يجمع بين طفولتك وطفولة أبنائك تصبح الروح كالرماد المتطاير .

إنها الذاكرة!

تحولنا في لحظة إلى كائنات مشتعلة في اللحظة التي نظن

فيها أننا أطفأنا كل شيء وبدت الأمور على ما يرام .

هل يعقل أن يحمل أطفالي ذات الوجع الذي حملته ذات يوم؟! وهل من العدل أن تتكرر فصول الحكاية وتحمل نفس الملامح والأنفاس؟

في يوم شتوي كهذا بكيتُ كثيرًا . . كما يبكي طفلي عبادة الآن أمام زنزانتك! خمس وعشرون سنة فصلت ذلك اليوم الماطر شديد البرودة ، واليوم الذي أقف فيه مع عبادة لزيارتك في سجن الرملة!

ذات الملامح . . تلك النظرات الماكرة المترقبة والأسلحة المتأهبة والأحذية الثقيلة ، ذات الدماء الباردة التي تجري في عروقهم . .

عندما ترتطم بمشهد يجمع طفولتك وطفولة أبنائك لابد أن تنتفض حائرًا! وتدفن وجهك في كفيك .

دخلنا السجن ، وجئت كعادتك تركض بسرعة البرق ، بينما أحمل مريم على يدي لأجعلها تصل للحاجز الزجاجي فتراك . . تطبع قبلة على الزجاج ، ثم تقفز في الهواء وأخرى وأخرى بينما يقف عبادة بجانبي صامتًا مقهورًا ، يتصفح ما يحدث بصمت موجع ، أحضن عبادة أكثر ، أرجوه أن يكذب هذه المرة فقط ، أرجوه أن يزوّر حقيقة عمره حتى يسمحوا له بالدخول عليك .

- قل للضابط أن عمرك ثماني سنوات وليس تسعًا .

لكنه كان يصرخ بحدة :

- لن أكذب! حينها لم أتفوّه بكلمة .

دخلت مريم جلست في حضنك ، تغدو مريم مخلوقًا آخر أمامك ، أنظر إليك تبتبسم وتحترق ، تحاول ألا تظهر مشاعرك وحنانك لمريم كي لا يبكي عبادة كما حدث قبل مرة!

أخذتَ تحادث عبادة من وراء الزجاج اللعين عبر السماعات . في هذه اللحظة وضعت مريم يدها على رأسك ومسحت على شعرك وأخذت تتأمل قسمات وجهك واضعة وجهك بين كفيها . . الوجه الذي حُرمت من رؤيته لمدة عام كامل . شعرتك تتأرجح كطير مذبوح لا يطير فينجو ولا يموت فيستريح!

فهمت ترددك . .

هل تحضن مريم أكثر وتغدق عليها من حنانك وأبوتك المكلومة؟ أم تراعي مشاعر عبادة الذي رفض الكذب . . رفض المقايضة بالكذب مقابل أن يكون في حضنك . . وأخذ يراقبكما من خلف الزجاج اللعين ، يضع عبادة رأسه في الأرض ، ويرفض أن يرفع نظره إليك وأنا أرجوه أن يفعل . .

- يا ماما . . ارفع رأسك وانظر لأبيك . . قد لا تسنح لك فرصة أخرى لتراه إلا بعد أشهر طويلة! أرجوك ارفع رأسك ، ابتسم لأبيك حتى تُفرّح قلبه .

ظل صامتًا عابسًا ، ملصقًا بصره بالأرض .

اقتربتُ منه . . حضنته أكثر . . شعرتُ بجسده يهتز

ويحترق وكأنه ريشة في مهب النار المتوقدة . . مريم في حضنك ودموعك في عينيك وابتسامة على شفتيك حتى تقوينا . وأنا في الجهة الأخرى من الزجاج ، يدي على عبادة واليد الأخرى أمسح دمعي الساخن الذي أخاف أن يسيل رغمًا عني!

نصف ساعة من أصل ساعة إلا ربع هي مدة الزيارة ضاعت في محاولة إقناع جنود الاحتلال بإدخال عبادة الذي تجاوز التاسعة من عمره لأبيه!

نظرات عبادة الملتصقة بالأرض إخالها دبوسًا حادًا لكز بالون الذاكرة فاندلقت المشاهد أمامي ساخنة سيالة . .

أغلقي الشباك يا بهية . .

هيا بسرعة قلتُ لك ادخلي إلى المنزل فورًا!

رنّ صوت أمي فجأة في أذني . . حادًا ودافئًا في آن معًا!

كل ما كنتُ أحاول فعله هو الوقوف على النافذة لأقتنص لحظة وأرى أبي قبل أن يأخذه جنود الاحتلال إلى سيارة البوسطة!

أمي لا تريدنا أن نراه في تلك الحالة . ولأنني كنت أتابع خطوات أبي المكبل ، المعصوب العينين لم أنتبه لتحذيرات أمي ، فأغلقتْ النافذة على إصبعي ، وبدأ الدم ينزف ، وأمي لا تدري ماذا تفعل! هل تركض صوبي لتعالجني وتخفف ألمي؟ أم تركض صوب أبي الذي يقتادونه في نفس اللحظة إلى سيارة البوسطة . . لكنها كفراشة هائمة . . أسرعت نحوي وقالت :

- حطي ميّ باردة على اصبعك وادخلي جوّا!
سمعت الضابط اليهودي يناديها :
- تعالي انتِ وابنك الكبير بس .
وفعلاً خرجت بسرعة لترى والدي وهو مكبل في سيارة الجيش . . فركضت أنا وأخي الصغير لنلحق بهم ونرى أبي . . كان مدخل بيتنا حوشًا واسعًا وكبيرًا وحوله أشجار زيتون كبيرة ومعمرة . . مشيت في الممر الطويل المبلط الذي ندخل منه لبيوت العائلة . . أعمامي وجدي ، خرجنا من الحوش بسرعة ، كان هناك جندي أسمر (أثيوبي) يقف على باب الحوش ، وما أن رآنا أنا وأخي حتى ضربنا بكعب البارودة ووقعنا نبكي على درجات الحوش ، فيما كانت سيارة الجيش تأخذ أبي بعيدًا عنا قبل أن نودعه ونحظى بقبلة منه!
في تلك الأيام أحببتُ والدي كثيرًا وافتقدته وكرهته أيضًا!
أحببته وافتقدته ، فقد كنا قريبين جدًا من بعضنا بعض . أذهب يوميًا بصحبته إلى المسجد الأقصى ، أركض وألعب في ساحاته ، أجلس في أي مكان يحلو لي دون أن أضع شيئًا تحتي ؛ فترابه طهر وبركة كما علمني أبي ، المضحك أنني كنتُ أظن أن المسجد الأقصى هو مِلك لأبي وأعمامي ؛ بما أننا نذهب إليه يوميًا نمرح ونلعب ونأخذ طعامنا معنا إلى هناك وفي ليالي رمضان كنا ننام هناك .

كنتُ صغيرة . . لكن أبي كان يحدثني دومًا عن أشياء كبيرة . . وأزعم أنني كنتُ أفهم ما يقول وأحيانًا أخزّن ما يقول وأحفظه لأستدعيه وأفهمه عندما أكبر! في طريقنا للأقصى كان يدندن بصوت قوي وحنون . . أناشيد وطنية . .

يا أقصى ما انت وحيد . . سيجناك بعيونا . .

كان يتحدث عن اللعبة القذرة في إحلال شعب مكان آخر ، يتحدث عن المقاومين وعتمة الزنازين والتعذيب ، عن صمت الأخوة وتمادي الصهاينة ، عن الفرق بين الكلمة والبندقية ، عن الهزيمة والنصر ، عن إصرار الباطل وهشاشة من يحملون الحق . كان يمشي ويضع يدي في يده ويسألني عن دروسي وواجباتي المدرسية ويبدي ملاحظاته على ما حفظت وما درست . .

ذات مرة ونحن في طريقنا للأقصى . .توقف وتنفس عميقاً وقال وهو يحوطني بنظرات حنونة :

- إياك أن تفعلي شيئًا لأجلي ، لابد أن تكوني مخلصة ، إن لم تقتنعي بالشيء لا تفعليه .

كنت أشفق عليه فقد كان مسؤولاً عن سلسلة طويلة من الواجبات، بالإضافة إلى عمله في المسجد الأقصى . بيتنا كان صغيرًا مكونًا من غرفتين فقط ، كبُر هذا البيت غرفة . . غرفة بيد أبي . أبي الذي كانت كفه تنزف دمًا وهو يبني جدران البيت حجرًا حجرًا ؛ لأن العائلة تكبر ، وكلما كبرت العائلة

وتوفر معه مبلغ ما يسارع لتوسيع البيت ، أبي الذي يشارك جدي في قطف الزيتون حينًا ويدخل السجن حينًا آخر .

أمي كانت معه لحظة بلحظة ، أمي التي تربّت على يد والدي ؛ فقد تزوجها وهي ابنة ستة عشر عامًا ، أصغر أخواتها ، مدللة ، طالبة في الكلية العلمية الإسلامية في عمان ، تعيش في بيت أخيها بعد أن توفيت أمها ، وكان أخوها يريد تزويجها من رجل ميسور الحال مثله ، ولكن زوجة أخيها وقفت في وجهه وقالت له :

- أمك قالت «فدوى» ما بتتزوج إلا ابن خالها ، وفعلاً تزوجت من أبي على شرط أن تكمل تعليمها بعد زواجها ، ولكن لم يتسنَّ لها ذلك إلا بعد مرور ١٨ سنة على زواجها لأسباب كثيرة منها بعد المدارس عن مكان سكننا .

وكرهتُ أبي . .

نعم كرهته ؛ لأنني وبعدما دخل السجن منعتني أمي من الذهاب وحدي للمسجد الأقصى كما كنت أفعل كل يوم ، كرهته لأن أمي تحملت المسؤليات الكثيرة وحدها ، تحملت تدخل كل الأطراف في حياتها وحياتنا . .

فعندما كان أبي في السجن وأخي الأوسط كان يحب الاستكشاف والبحث . . لا يترك شيئًا إلا وينَقب فيه ، يحب أن يكتشف كُنّه الأشياء فقد صنع مقلاعًا ورماه على أسلاك الكهرباء فحدث تماس كهربائي وانقطعت الكهرباء عن الحارة

بكاملها . . عندها جاء جدي بعصاه وقام بضرب أخي ضربًا مبرحًا وربطه من يديه وقدميه ووضعه على السرير . وأحضرنا أنا وأخوتي الستة وقال :

- هذا جزاء من يشاغب ولا يسمع الكلام! طبعًا أخي روحه حرة كأبي لا يتحمل القيد . . فأخذ يتحرك يمنة ويسرى رافضًا القيد . . فوقع على الأرض ، وكُسرت سنه ، ونزف الدم غزيرًا من وجهه حتى غطى ملامحه ، فلم نعد نرى مصدر الدم وسببه . . يومها كرهت أبي لأنه تركنا وكرهت جدي لقسوته .

في المساءات الصيفية والشتوية كان أبي يواظب على تخفيف الأنوار ، ويجلس على سريري ومعه قصة من قصصه الجميلة.، كنت أراه فارس أحلامي الذي يأخذني لعوالم سحرية عبر قصصه وكلماته التي لا تنتهي . .

وفي موسم قطف الزيتون كان يتركني على سليقتي ، لا يتدخل في تحركاتي المشاغبة ، لقد كان لجدي الكثير من الأراضي الزراعية ، وكان يحب أن يشارك الجميع بالقطاف . . الصغار والكبار . . النساء والرجال ، وكنت أتسلق أعلى الشجرة وأقطف بخفة ؛ لأنني كنت نحيلة الجسم ، وعندما أصبحت بالصف العاشر كنتُ أستمتع بالدراسة وأنا على جذع شجرة التين ، كنت أتسلق وأتشقلب على الشجرة كلاعبي الجمباز . رأسي للأسفل وقدمي للأعلى . .

***

أرفع رأسـي في هذه اللحظة . . أنظر في عـيني عـبـادة . .

يحضنني ويقول :

لا تزعلي مني يا ماما . . بتعرفي ليش ظل راسي لتحت؟

أنظر إليه منتظرة إجابته . .

- ما قدرت أشوف مريم بحضن بابا وأنا لأ!

ماذا يفعل الشهداء؟
إنهم يطهرون أيامنا من الخبث!

القدس يا ماهر . .

القدس . . حناء الدم الذي ينهمر كشلال زاه . .

القدس يا رجال عَتْبتُهم السماء . .

القدس يا حزن الأهداب وقد أثقلها مشاهد الانحناء . .

يا قدس لا تحزني . . فما زال هناك رجال يشترون ترابك بمهر غال ويقبضون الثمن عند أول دفقة دم . .

لا شيء يوقف الشمس أن تشرق ، ولا قيد أثقل من الصمت والصمم .

من يتجاهل ما يحدث في الأقصى . . إما مساوم قبض الثمن ، وإما خَدٌ اعتاد الصفع حتى بات لا يعرف ملامحه أهي عربية أم عبرية!

كثيرون تزملوا بالحياة وغرقوا في تفاصيلها التافهة حتى تنفسوا غبار نعال الاحتلال!

كثيرون تخدروا حتى لم تعد تعنيهم الأشلاء ، تعفنت الرؤى والمبادئ وما همهم أن تهتك الأستار ويجوس المحتل في أقدس البقاع!

لم أكن أعرف معتز حجازي ولم أره قبل ذلك .. لكنني أذكر أنك حدثتني عنه ذات مرة وقلت لي :

- إنه شاب يتدلى عشق الأقصى من عينيه كدالية عتيقة ، وكنتَ تردد عبارة سمعتها منه .. «ماذا يفعل الشهداء؟ إنهم يطهرون أيامنا من الخبث ويحصنون ذاكرتنا من الخراب» .

ذات مرة قام بضرب محقق كان يقوم بتعذيبه أثناء التحقيق ، وكان قد اعتُقل خلال الانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠ وعندما خرج من السجن بعد عشر سنوات أقسم أن ذخيرته لم تنفد!

أذكر اليوم الذي تمّ اغتياله فيه بوضوح ٢٠١٢/١٠/٣٠ ، وكنتُ منهمكة في تحضير الغداء لعبادة ومريم قبل عودتهم من المدرسة .. دخل عبادة ومريم الدار وهما يصرخان :

- لقد استشهد عمو معتز حجازي صاحب بابا!

عندما سمعت بخبر استشهاده خرجت يومها من المنزل ، كانت القيامة قائمة في القدس ، عطر الشهادة يتفتح في كل زقاق والشوارع تضج بالتكبيرات والنفوس في ارتقاء لا انكسار فيه .. سمعتُ أحدهم يقول للآخر :

ترصدوه عبر الكاميرات المزروعة في الشوارع ، القوات الخاصة حاصرت منزله بالكامل ولم يقتحموه إلا بعدما تأكدوا من إصابته بصورة كاملة ، كانوا يقفون على سطح بناية مقابلة وباغتوه بكمين محكم ، وعندما وجدوه مضرجًا بدمائه لم

يكتفوا بذلك ، فمن شدة ضعفهم وجبنهم ألقوا عليه الألواح الشمسية لتسخين المياه وتركوه ينزف حتى الموت!

في ذلك اليوم وجدتُ نفسي أركض في طرقات القدس وزقاقها ، ألْتفتُ يمنة ويسرة ، أتلقف كلمة من هنا وكلمة من هناك ، أفكر هل أركب بتاكسي لأصل إلى حي الثوري حيث يسكن الشهيد؟! أم أنني لن أتحمل أن أركب ؛ فحرارة أقدامي ستوصلني قبل التاكسي . . أركض وأحكي معك . . حتى أن الناس ظنوا أنني مجنونة! تُكلّمُ من؟!

لكنني كنت متأكدة أنك معي وتراني . . أتهامس وإياك :

أسمعك تقول :

- روحه أثقلها القهر ، والغضب يلتهب على حواف القلب ، معتز حجازي لم يتحمل الاقتحامات المتكررة التي يقودها «غليك» على المسجد الأقصى ، وحين تصبح الأرض جافة والأماني تحترق بالملح والسغب فلن يبللها إلا شهيد!

أشهق وحلقي يضج بعطش جارف . .

تمسك بيدي وتكمل الحكاية . . أسير معك بروية . .

أبناء القدس لا يموتون يا بهية!! قد تتمزق الأجساد وتتناثر الأشلاء وتتفت الأدمغة وتسيل الدماء ، لكنهم يزهرون من جديد ، فما غُرس بالدم يزهر كل حين .

في المساء أعود إلى البيت مع طيفك . . أتساءل وكأن الزمن يعود . . تعود التفاصيل . . والملاحقات والتصفيات . .

يعود الموت النبيل . .! كم موتًا علينا أن نعيش كل يوم؟ كم روحًا حرة علينا أن نطلقها من عقالها؟ كم اسمًا عليه أن يتغير؟ تعود إلي في هذه اللحظة أحداث العملية التي قمت بها وكأنها الآن!

أبتسم وأنا أسترجع الحدث، أنهض بهمة، أفتح التلفاز من جديد، أقرأ في مواقع الأخبار الفلسطينية الحقيقة كاملة.

خرج معتز من المطعم الذي يعمل فيه بالقدس الغربية متزملاً مسدسه، أتذكر قولك الآن:

إلى متى سنواجه الرصاص بالأحجار؟

في الساعة ٢١,٤٠ دقيقة أخذ إذنًا من مسؤول الوردية في المطعم وغادر المطعم، وبدلاً من أن يعود للبيت . . انتظر «غليك» ليخرج من المؤتمر . .

في الساعة ٢٢,١٠ دقائق خرج «غليك» من المسجد الأقصى برفقة عدد من المتطرفين اليهود الذين يقتحمونه بشكل يومي . . تقدّم حجازي بكل ثقة وهو يرتدي الزي الرسمي للمطعم وسأله بكل ثقة:

– هل أنت يهودا غليك؟

فأجاب:

– نعم.

ردّ عليه حجازي:

– المعذرة، إنك تثير غضبي باقتحامك للمسجد الأقصى.

ثم أطلق عليه أربع رصاصات من مسافة صفر واستطاع الفرار!

كنتُ أسمع كثيرًا عن هذا المتطرف الصهيوني الذي هاجر من الولايات المتحدة الأمريكية وهو في التاسعة من عمره .. غليك ذو الشعر الأحمر الذي كان يقود أكبر عدد من اليهود لاقتحامات المسجد الأقصى ويقدم شروحات عن الهيكل المزعوم، وكان كثيرًا ما يهاجم حكومته على خلفية عدم إغلاقها المسجد الأقصى أمام المسلمين.

كان يقتحم المسجد الأقصى بشكل يومي حتى يألف المسلمون هذا المشهد .. يقتحم المسجد الأقصى مع عدد كبير من المتطرفين وتحت حراسات أمنية مشددة، حتى أنه ارتفعت وتيرة الاقتحامات وعدد المقتحمين ليصل في شهر واحد إلى ١١٤٩ مقتحمًا!

هل تنسى الذاكرة ذلك الفتي يا ماهر؟ هل يضيع طيفه مع أطياف من رحلوا؟ وما أرهقتهم قيود العبودية، وما عكفوا على العجل، وما مدوا يدهم للسامري!! من سيرجع فلسطين؟ هل هم الشهداء فعلاً؟ أم هي أرواحهم التي تسكب الطهر وتوشوش لمن يعشق القدس أن يلحق بها ..

معتز حجازي يا ماهر لم يشتعل غضبًا من جوع أو عطش! ولا جفت روحه التي يسقيها كل ليلة بالدمع والقرب حتى لكأنه تعلق بأغصان الجنة ..

استلقيت بجانب أطفالي مريم وعبادة اللذين كانا للتو

يتذكرانك . . يقول عبادة لمريم . .

بتذكري لما بابا اشترى لك جاكيت زهري . .؟

آه . . آه وبتذكّر لما بابا كان يدغدغ رجلينا ويظل يدعي . .

استلقيت بجانبهما ولسبب أجهله . .ظلت حكاية معتز حجازي هي سيدة الحكايا التي يطلبها الصغار! ألأنه صديقك؟ ألأنه غضب للأقصى؟

وكنت في كل ليلة أتساءل وصغاري ماهي الحكاية القادمة يا ترى؟

الرصاصة

بهية! ياجناحي الذي أحلق به . .

بالأمس اضطررت إلى التوقف عن الكتابة . الكتابة هي وسيلتي الوحيدة للإلتقاء بكِ كل ليلة ، هي التي توحدنا ، نلتقي رغم بعد المسافات ، كلما أسمع صرير القلم على الورقة . . أتخيل نفسي أدق على باب دارنا وتركضين لتفتحي لي الباب بلهفة كما تتلهفين الآن لقراءة حروفي!

توقفتُ بالأمس عن الكتابة! لو تعرفين السبب يابهية! توقفت بسبب الرصاصة إياها! ليس لأنها تؤلمني . .لا أبداً! سأحكي لك . .

لقد تعلمتُ كيف أتعايش مع هذه الرصاصة ، هاهي سنوات طويلة تمر والرصاصة مازالت ساكنة هادئة في جسدي أحياناً! وأحياناً تشعل ناراً في ظهري وحيناً تكون برداً وسلاماً! في أحيان كثيرة كنت أشعر يابهية أنها جنين يسكن جسدي! جنين أرعاه وأحرص أن لايقترب منه أحد مهما كان السبب! أحياناً كثيرة كنتُ أشعر بمشاغبتها وحركتها ووخزاتها المؤلمة في ظهري ، وحيناً تسكن وتهدأ كطفل في رحم أمه!

نعم إنها طفلي الذي استوطن جسدي ، معها لا أستطيع

المشي بشكل مستقيم . عندما أجلس لا أستطيع الاتكاء أبداً على الحائط أو الكرسي!

كانت أقصى أمنياتي أن أستلقي على ظهري وأتمدد على سريري! لم يكن يخطر ببالي أن هذا الشئ التافه - الاستلقاء- سيكون عظيماً بالنسبة لي!

تذكرتك وأنت حامل بأطفالنا . . مشيتك ، آلام ظهرك المبرحة ، آلام معدتك ، أنينك أثناء الولادة!

هل ألدّ رصاصة يا بهية؟! نعم هذا ماحدث!

اليوم وعندما دخلت لأخذ (دوش) خفيف وضغطت على الرصاصة كالعادة حتى أخفف من وجعي وحتى أخرج تلك المادة التي تجمعت حولها (القيح والصديد) ضغطت أكثر وأكثر وأنا أكزّ على أسناني وأحبس أنفاسي وإذ بالرصاصة تخرج بين يدي!

أتعرفين مالذي يثير الدهشة في الأمر؟

لقد تركت الرصاصة في روحي أثراً جميلاً! لقد أصلحت الكثير من الأمور في داخلي ، خلقت شموعاً جعلتني أرى ما لايُرى!

أتذكرين عندما قلت لك . .

- أكثر ما أخشاه عند الإفراج عني هو أيدي المهنئين التي ستضرب بقوة على أكتافي وظهري - فهذه تحية المحبة والشوق - كنتِ تضحكين عندما أقول لكِ :

- سأضع على مكان الرصاصة غطاء علبة ما وألصقها عليها لأنني سأسلم على أناس كثر وبالتأكيد سيربتون على كتفي وظهري بقوة .

ها أنا أعود للحياة من جديد يابهية . .

المرة الأولى التي عدت فيها إلى الحياة عندما استيقظت من غيبوبة ال٨ أيام ، عندما سمعت الطبيب يقول بلكنة عربية مكسرة . . لقد تمت العملية بنجاح! نظرت حولي! لم أجد أحد أعرفه إلا القيود

يدي اليمنى وقدمي اليسرى مقيدة بالسرير! البرابيج تخرج من فمي وأخرى تخرج من صدري تقوم بسحب السوائل من الكبد والرئتين ، تضعهم في صناديق زجاجية بألوان مختلفة ، أحسستُ بتلك الكبسات الحديدية التي تغطي كل منطقة الصدر والبطن وذلك الجسر الحديدي الذي يربط بين يدي اليسرى التي تهشمت من الرصاص بكتفي . أما يدي اليمنى المقيدة بالكلبشة فهي الوحيدة التي تُدخل الغذاء إلى جسدي عبر الإبر الموصولة بالوريد ، أتذكر يومها أنني لم أكترث لشئ من هذا . . أول ما سألت الجندي الذي يقف بجواري أين بهية؟!

وها أنا اليوم وقد عدت إلى الحياة مرة أخرى . .أول شئ أفعله . .أكتب لبهية!

لماذا بقيت الرصاصة كل هذه المدة في حياتي؟

لماذا لوّنت حياتي بالتعب والوجع؟ حتى تذكرني بلحظاتي الأخيرة التي كنت فيها بين الحياة والموت؟! حين كان الجنود يضربونني ويطلقون الرصاص نحوي وأنفاسي معلقة بين السماء والأرض .. تلك الدقائق كانت أجمل دقائق حياتي! إيه والله!

- من أنت؟

- من أنت؟

وأنا أجيبهم ببسمة المنتصر :

- القدس إلنا .. القدس إلنا ..

رغم كل الألم الفظيع الذي كنت أعانيه في كل ليلة فإنني لم أتوسل للسجان!

في آخر زيارة رأيتك فيها يابهية ، كان الألم قد بلغ أشده ، كنتُ مدمرًا بالفعل .. كنت أبحث عن أي كتف أستند عليها ،لكنني عندما رأيتك تنفست الألم إلى الداخل . وهرعت إلى من لا أخجل أن أشكو إليه وجعي! كنت أعرف أنك تشعرين بي مع أنني لا أتكلم! وكثيراً ماكنت تلومينني وتقولين لي :

- لابد أن تفعل شيئاً ما حتى يُسرّعوا من موعد العملية ويزيلوا الرصاصة الباقية .

قلتِ لي يومها :

اصرخ .. حطم القضبان ، اضرب عن الطعام ،إفعل أي

شئ . . يجب أن يزيلوا الرصاصة اللعينة!

قلتُ لك :

- هذا لن يفيد أبدًا ، سيضعونني في العزل النفرادي وسيظلون يماطلون في العملية!

فبعد سنوات من وجودها في جسدي هاهم يحددون لي موعد ٢٠١٧/٥/٥ أي بعد شهر ونصف من الآن .كان الأسرى يخوفونني دوماً من إمكانية تعمّد الاحتلال لإيذائي! فالرصاصة موقعها خطير بجانب العمود الفقري وهذا مناسب ليجعلونني مشلولاً مثلاً!

لكن الرصاصة خرجت مطعوجة ، ملوثة بالدم والصديد والقيح ، أخذها الأسرى مني ، فرحوا بها ، احتفظوا بها كتذكار!

وقلت لإدارة السجن أنها نزلت بالصرف الصحي حتى لايصادروها ، وقمت بشراء علبة حلو مشكل ووزعتها على الشباب فيما قام بعضهم أيضاً بشراء حلوان احتفالاً بي .

كان الألم يبلغ مداه والقيح والصديد يملآن ثيابي والنوم يجافي أجفاني ومع كل ذلك لم أصرخ يوماً ولم أُشعر من حولي بألمي!

كنتُ أشعر أن وجود الرصاصة نعمة ، قرأتُ وجودها في جسدي بصورة أخرى . . رأيت فيها ما لايراه غيري ، أحببتها مع كل الوجع الذي عانيته ، دعوت الله كثيراً أن يخفف عني وكانت الإجابة تتأخر ، لم أتضايق حينها ، بل كنت على يقين

أنه ليس من حكمة الله أن يعطيني على هواي! فالله يدفعني إلى بابه أكثر وأكثر .

الله جعل هذه الرصاصة مع السجن ، فلا طبيب ولا دواء ، قرأت ذلك بطريقة أخرى . . إن الله يريدني أن أقف على بابه وحده!

وهكذا تحوّل الألم الشديد الذي لم أجد له حلاً ولا مصرفاً . . إلى أنس بالله!

أنا الآن أسند ظهري إلى الحائط ، أمسك بالهاتف الذي تمّ ادخاله حديثاً إلى الزنزانة بعدما اكتشفوا أمر الهاتف القديم ، ها أنا أتحدث إلى مطعم (القدس) وأنا معلق بزاوية من زوايا الزنزانة حتى يلتقط الهاتف الترددات ، اتصلت بالمطعم الذي تحبين أن تتناولي الطعام فيه ، أحجز لك وللأولاد طاولة . .

أنتم اليوم معزومين عندي (حلوان شفائي) ستذهبون إلى المطعم فتجدوا من بين كل الطاولات هناك طاولة عليها باقة ورد ومكتوب عليها (محجوز للأسير ماهر)!

دمك كزيتون الأرض يضيء
وتعتم كل الغلال

لماذا؟

لماذا ياماهر؟

لماذا عليّ أن أحتمل اغتسال الورد بالدم يومًا بعد يوم؟ لماذا عليّ أن ألتحف الصبر، وأنا أرى مزيدًا من الأغلال تمعن في حزّ الأيدي المتوضئة؟

لكنني أجيب نفسي .. وأقول :

هذا ما يقصر الطريق ويعين على الاحتمال . هذا ما يجعلني أنتظر وأنا على يقين بأن الأسرى سيخرجون .. ستعود لي يا ماهر .. سيعود كل أسير إلى أهله!

ستعود يا ماهر؛ لأن هناك من يحمل سكينًا تمنحه الكرامة والرجولة، تضيء له الطريق بعد أن عجز رصاص العروبة أن يُصوب تجاه الاحتلال وغدا يصوب نحو الأخوة!

ستعود، أنا على يقين من ذلك .. كما أكتب اسمك الآن!

ستعود يا ماهر؛ لأن هناك من يلملم الأشلاء وصرخات

الطفولة المكلومة! وتتلاحق الأخبار ويتساقط المزيد ليفضح ستر من يقدمون التنازلات . .

حين انطلق ذلك الصوت من المذياع ذات يوم من أيام شهر آذار . . كانت القدس تنصت لذلك الخبر . . خبر تسليم مخابرات الاحتلال الإسرائيلي جثمان الشهيد المقدسي «بهاء عليان» لعائلته بعد احتجازه لنحو تسعة أشهر في الثلاجات . يومها لم تأبه القدس لشروط الاحتلال الذي اشترط أن يتم الدفن في مقبرة باب المجاهدين بشارع صلاح الدين في القدس وبحضور ٢٥ شخصًا فقط من عائلته!

أكتب إليك في هذه اللحظة وقد أبعث إليك بالرسالة وقد أتراجع في آخر لحظة كما أفعل أحيانًا!

هذه المرة لم أكتب على الورق فقط . . لم أترك النار مشتعلة داخلي . . إنني أريد أن ينتقل الاشتعال لكل القدس ؛ لذلك كتبت هذه المرة على موقعي على الفيس بوك أيضًا . .

كتبت . .

دمك كزيتون الأرض ؛ يضيء وتعتم كل الغلال ، وعلى أصابعك يزهر الغيم والجدب تحمله قلوب عجاف!

قليل من الدم يا بهاء يعيد بهاء الأرض . .

قليل من الدم . . كفيل بأن يبث الروح في أنفاس الأنبياء ، كفيل بأن يفتح الأبواب لعشاق الشهادة . .

زقاق القدس . . ترابها . . مآذنها . . حيطانها . . يوقظ

بعضه بعضًا . . فتبدو القدس ليلاً كعروسة تتزين لفارسها الذي طال انتظاره في ثلاجات الاحتلال لمدة ٣٢٤ يومًا!

في القدس قد تتجمد الأجساد في ثلاجات الاحتلال . . غير أن الأرواح تحلق في السماء ، ترش النائمين والغافلين بماء الورد . . فيصحو كل من انغرس في قلبه سكين الاحتلال فاستكان .

لا جنازات ، ولا قبور للشهداء . . هكذا هي شروط الاحتلال ، إجراءات أمنية مشددة في محيط المقبرة ، منع للصحفيين من تغطية مراسم الدفن والتشييع . . قوات كثيفة تحيط بالمقبرة ؛ ذلك أنهم يعلمون أن للدماء عيونًا وآذانًا . وأن للتراب ذاكرة لا تشيخ .

لا عليك يا بهاء . . لا ليل في القدس يا بهاء . . ففي القدس تزهر الدماء ليلاً فيغدو الليل عين النهار . قطرات دمك لاتزال ملتصقة بالشرفات المتعبة والحيطان المهلهلة . .

يمكن للدماء يا بهاء . . أن تبقى سائلة متلألئة ، دافئة ، رقراقة على حواف جسد يشتعل للقدس وفي القدس .

وانتشر الخبر . . وزحف الناس تجاه المقبرة واشتعلت القدس ، إطلاق نار وأناشيد وتكبيرات وعبارات حماسية . .

وتتبدل المشاهد . . وألمح عين بلال غانم يراقب بوهن وقد غطت جسده الدماء رفيقه في العملية «بهاء» وهو يحلق في السماء رافعًا سبابته . . أدرك لحظتها أنه فارق الحياة شهيدًا .

بينما استقرت الرصاصات في جسده ولم ينل الشهادة . بقي ليروي تفاصيل الحكاية . . حكاية ستضيء الجراح وتبعث الدفء في الذاكرة الباردة .

أستعيد الحكاية التي لا تقبل التجزئة ولا التلخيص . . تعود بقوة .

أُنصت لبهاء عليان ورفيقه في العملية بلال غانم وهما يخططان للعملية ، رأيتُ بلال يطرق باب بهاء عليان ليلاً ، يشتم الاحتلال ويلعن المستوطنين ومن يمهد له الطريق ، يربت على كتفه ويدخله إلى بيته ، يجلس بجانبه ويناوله هاتفه ليريه مقطع فيديو للطفل أحمد مناصرة وهو ينزف ما تبقى من رجولة الأمة وشرفها . . هذا الفيديو كانت القشة التي قصمت ظهر البعير ، اختنقا بالصور ، واكتظت الذاكرة بزغاريد الوجع والموت الذي توّزع بين ذبح وحرق .

وقررا تنفيذ الهجوم . . اشترى بهاء عليان مسدسًا نوع ((fn) بعشرين ألف شيكل من بلدة أبو ديس شرق القدس واشترى أبو غانم سكينًا كبيرة ، وانتقل الاثنان على متن دراجة نارية ، ووصلا إلى منطقة «ارمون هنتسيف» غرب القدس ، وقبل أن ينفذا العملية دخلا متجرًا لشراء الدخان مع أنهما صائمان حتى لا يثيرا الشكوك أثناء الانتظار في الحافلة التي كانت خالية من الركاب في البدء!

صعدا إلى الحافلة رقم ٧٨ . . كانت خالية من الركاب ،

وقف بهاء في مقدمة الباص يحمل سكينه ، بينما وقف بلال في مؤخرة الباص يمسك مسدسه (fn) ومع كل طعنة سكين وطلقة رصاص تهتز الأرض وتلتمع مشاهد ويسمعا أصوات استغاثة الطفل أحمد مناصرة ، مع كل طلقة رصاص تشتعل النار التي حرقت عائلة الدوابشة وأحالتهم رمادًا ، يشرق في هذه اللحظات وجه فتاة انحنى جسدها على تراب الأقصى ، وقد ضاعت ملامحها بالدماء ، وما ثارت حتى حمية الجاهلية في العروق .

ظل بلال يطلق الرصاص حتى نفد مشط مسدسه لنهايته ، وظل بهاء يطعن بالسكين حتى انكسر النصل في جسم أحد الصهاينة .

سكين قد لا تمنح التحرير . . لكنها تفتت الأكذوبة وتكشف العجز والخور ، سكين تربك جحافل جيش لا يقهر . رصاصات يتيمة قد لا تصنع النصر . . لكنها تحطم اليهودي وتزرع فيه الخوف ، تقوض كيانه ، هذه السكين لا تكسر قضبان السجن لكنها تضيئه!

كانت حصيلة العملية قتل ٣ مستوطنين وإصابة أكثر من ١٢ صهيونيًا بجراح . . رحل بهاء واحتجز جثمانه في ثلاجات الاحتلال . . بينما بقي رفيقه بلال غانم . . الذي أخذ يصرخ في وجه الجندي الصهيوني :

علّمت عليك . . قالها للجندي مرارًا وتكرارًا . .

يصـرخ بلال غـانم الـذي وقع في الأسـر . . يشـتم رائحـة الشهادة ولاينالها!!

يتساءل بمرارة :

- لماذا لم تخـتـرني عين السـمـاء؟ هل في القلب زبد؟

ويجيبه طيف بهاء . . مكانك ترعاه عين السماء!

العرس

صباح العاديات المغيرات وهنّ يقدحن شرر العودة ، صباح يتفتح في أرض عطشى لكنها على يقين بزهر يتبرعم!

صباح الموريات قدحًا . . فقدحهم لا يكذب ونارهم لا تتأرجح بين عتمة ونور . . نارهم نور قادم تضيء للعائدين .

ها أنا ذا يا ماهر أسمع تراتيل سورة الإسراء تتسرب من بين قطرات الدم الساخن . .

كل حادثة تقع في القدس . . كل عملية صغيرة كانت أم كبيرة . . كانت تشكل بالنسبة لي بقعة ضوء تمهد لليوم الموعود!

أنتبه على صوتك تناديني لتمسك بيدي . . يتقدمنا عبادة ومريم . . ندلف للقاعة الكبيرة . . الكل يزغرد ويهاهي . . أعيش في ظل هذا اليوم! هل أختلق هذه الصورة لأقوى على الاحتمال؟!

لا أدري!

أنتظر طرقاتك على الباب لأفتح لك ، أجدك أمامي بكامل بهاءك . . لم تتغير يا ماهر . . نحلت قليلاً . . زاد الشيب في رأسك وذقنك . . قليلاً . . مشتعلاً كقنديل . . أحوطك بذراعي . . فتعاود الاشتعال بقوة . . تهبني ضوءك وبهاءك . .

نجلس معًا كما تعودنا على الشرفة نشرب قهوة الصباح وعيوننا معلقة بالأقصى . .

هل أرتكب خطأً فادحًا إذا تخيلت ذلك؟

هل أتمادى في خيالاتي وأحلامي المستحيلة؟!

هل سأرتطم بصخرة كبيرة تهرسني وتوقظني على واقع مرّ؟!

الزمن يمضي يا ماهر . . يتحرك بسرعة مجنونة ولا أستطيع اللحاق به . مع الزمن تتحول الآمال المجنونة اللامعقولة إلى بدايات جميلة ومعقولة . .

نعم اللامعقول . . المستحيل قد يغدو ممكنًا بجرعة يقين!

أحياناً أختلق صورة أخرى للقاء!

أقف قبالتك تماماً . . ألبس الثوب الأبيض الذي طرزته بدرجات الأزرق السماوي . . أتأملك وينعقد لساني عندما أراك تنزل من الحافلات المخصصة لنقل الأسرى المحررين . . عقدة لساني تنحل فأزغرد وأهاهي وأنا أرى جموع الأسرى ينزلون من الحافلات . . يركضون صوب الأقصى . . يصلون صلاة الفتح .

أركض مع الجموع . . في الطرقات والزقاق . الآلاف كانوا في الانتظار!

كم من العمليات والدهس والطعن التي مهدت لهذا اليوم؟!

لا أذكر . . كل ما أذكره قول الله تعالى ﴿فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً﴾ لقد جاسوا يا ماهر . . وجاء الوعد الرباني!

أغذّي خيالاتي بالمزيد من الأحلام والأماني المستحيلة . . أنتقل في غمضة عين من مشهد لآخر . .

أرانا نسير إلى المسجد الأقصى . . لا جنود اسرائيلين مسربلين بالسلاح . . لا خوذ حديدية ، لا خيالة صهاينة يجوبون شوارع القدس ، لا حواجز عسكرية ونقاط تفتيش ، لا مستوطنين ولا طواقي ولاجدائل متدلية ، لا جدار حاجز . . التكبير يعم الأرجاء . . إذا جاء نصر الله والفتح تصدح بأصوات الفاتحين . . . . أسمع اليهود يصيحون يستنجدون أن نتركهم يفرون من المدينة!!

من ناصية الحلم أتابع تحرير فلسطين ، الختيارات ينثرن ماء الورد على الأسرى المحررين!

سأمحو كل ما أكتب . . لو قرأته يا ماهر ستقول جُنت بهية!!

الدموع تنساب بغزارة . . دموع عصية على التفسير يختلط فيها الفرح بالحزن! أشاهد الملايين وهم يعودون إلى قراهم وبيوتهم المهجرة ، الشباب يخلعون الألواح العبرية المثبتة على الطرقات لتعود الأرض عربية . . الناس أفواج أفواج من كل حدب وصوب . . يتعرفون على بعضهم البعض . . البعض يحمل لافتات كُتب عليها اسم قريته الأصلية والمنفى الذي جاء منه . .

أنا من عكا وجئت من إيطاليا . .

أنا من صفد وجئت من لبنان . .

أنا من يافا وجئت من العراق

أنا من نابلس وجئت من أمريكا

أنا من اللد وجئت من الأردن

أنا من طبريا وجئت من بريطانيا . .

الختيارات يلبسن أبهى الأثواب ويرمين العكازات ، الختيارية يدبكون ويرفعون حططهم ويهللون ويكبرون ، الأمهات يرفعن صور شهدائهم والحبيبة التي تأخر عرسها مرة بسبب اعتقال الحبيب ومرة أخيرة بسبب صعود العريس للسماء هاهي تأتي لتحضر العرس الأكبر . .

هل ما يحدث محض خيال؟

والله ليس خيال يا ماهر . . ها أنت تركض صوبي . . تمسك بيدي . . تحضن الأولاد ، تقيس أطوالهم . . صاروا يناهزونك طولاً . . أركض وأفتح الخزانة . . أُخرج كل قمصانك وبناطيلك وجواربك التي كنت أغسلها أسبوعياً وأكويها . . أركض صوب البدلة السوداء التي اشتريتها حديثاً وحضرتها ليوم العرس . . ألبس ثوبي الأبيض الذي طرزته بيدي . . ها أنت تمسك بيدي يتقدمنا عبادة ومريم وسط زغاريد النسوة . .

انتهت في ٢٠١٧/٨/٢٠

عمان

D A M A S C U S G A T E



باب العمود

القدس .. أوّل السطر وأوّل النزف. هي كفّ المسيح تفيض بالنور .. هي ترتيل محمّد يجمع شتات القلوب.
القدس يا رجالاً عتبتهم السماء.
القدس يا حزن الأهداب، وقد أثقلتها مشاهد الانحناء.
من يتجاهل ما يحدث في القدس، إمّا مساوم قبض الثمن، وإمّا خدّ اعتاد الصفع حتّى بات لا يعرف ملامحه أهي عربيّة أو عبريّة!

